المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

مارجريت يورسنار

قصص شرقية

ترجمة

محمد سيف

1384



سلسلة
الإبداع
القصصى





هذه القصص، التى كتبت على مدار عشر سنوات سبقت الحرب العالمية الثانية، بدا إغواء الشرق منبعثًا بوضوح فى خلفيتها وأسلوب معالجتها وروح نصوصها. فمن الصين إلى اليونان، ومن البلقان لليابان، تصحبنا هذه الحكايات كأنها مفاتيح عمل موسيقى فريد آت من بعيد. فتلك التعاويذ المدهشة للرسام وانج فو، الذى أحب صور الأشياء لا الأشياء نفسها، كانت ترجيعا للشعور بالمرارة الذى أحسه العجوز "كورنيليو بيرج"، وهو يتلمس الأشياء التى لم يرسمها قط. أما "ماركو كارلييفيتش"، الصربى الذى لا يخشى شيئًا، والذى خدع الأتراك والموت أيضًا، فضلاً عن النساء، فهو أخ للأمير جينغي، الذى خرج من رواية يابانية كتبت فى القرن التاسع عشر، من خلال أنانية الفاتن الأعمى، وتوهمه حول العاطفة الحقيقية. كما أن الحب المترفع لـ"فانيا" الألبانية أو الحداد المقدس للأرملة أفروديسيا، يجيب كلاهما على تضحية الإلهة "كالي" (نيلوفر الكمال)، التى قادها سوء حظها في النهاية إلى "بطلان الرغبة".

بهذه الأساطير التى تم اصطيادها، والحكايات الخرافية الحكيمة، تكون هذه "القصص الشرقية" صرحا لا مثيل له فى عمل مارجريت يورسنار. وهو صرح ثمين، بمثابة ركن للتعبد فى قصر فسيح. يتغير فيه الواقع، كما يتحدث الحلم والأسطورة بلغة جديدة كل مرة.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

قصص شرقية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1384
- قصص شرقية
- مارجريت يورسنار
- محمد سيف
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

Nouvelles Orientales

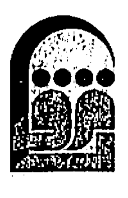
Par: Marguerite Yourcenar

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

قصص شرقية

تـأليـف: مارجريت يورسنار
تـرجمة: محـمد سيـــف



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

يورسنار، مارجريت
قصص شرقية / تأليف: مارجريت يورسنار، ترجمة : محمد سيف
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠م
١٣٢ ص؛ ٢٠سم
١- القصص
أ - سيف، محمد (مترجم)
ب- العنوان ٨٠٨,٨٣

رقم الإيداع: ٤٦٨٠/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى: 978-977-479-925-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

ـ كيف أنقذ وانج فو 7

ـ ابتسامة ماركو 25

ـ حليب الموت 37

ـ الحب الأخير للأمير جينغي 51

ـ الرجل الذى عشق حوريات البحر 65

ـ كنيسة السيدة العذراء راعية السنونو 75

ـ أفروديسيا الأرملة.. 87

ـ كالى ذات الرأس المقطوع 99

ـ نهاية ماركو كارلييفيتش 107

ـ تعاسة كورنيليو بيرج 113

ـ حاشية بقلم الكاتبة 119

كيف أُنقِذ وانج فو؟

راح الرسام العجوز وانج فو وتلميذه لينج يذرعان شوارع مملكة هان.

كانا يتقدمان ببطء، لأن وانج فو يقضى الليل بطوله فى تأمل النجوم، والنهار فى النظر لليعاسيب. وكانا محملين، فوانج فو الذى يحب صور الأشياء، وليس الأشياء نفسها، لم يجد شيئا جديرًا بالامتلاك فى العالم، سوى فرش الرسم وعلب الصمغ والأحبار الصينية، ولفائف الحرير وورق الأرز. كما كانا فقيرين، لأن وانج — فو يقايض رسومه بحصص من الأذرة المغلية ويزدرى النقود. كان تلميذه لينج منثنيا تحت ثقل حقيبة مليئة بتخطيطات الرسوم، حانيا ظهره باحترام كما لو أنه يحمل قبة سماوية، لأن هذه الحقيبة، فى نظر لينج، كانت تحوى الجبال المغطاة بالجليد، والأنهار الربيعية، وطلعة قمر الصيف.

لم يولد لينج لكى يذرع الطرقات إلى جوار رجل عجوز يستولى عليه فى الفجر ويظل أسيره فى الغسق. فقد كان والده يعمل فى مقايضة الذهب، وكانت أمه هى الطفلة الوحيدة لتاجر أحجار كريمة حرمها من ممتلكاته لاعنا إياها لأنها لم تكن ولدا. وكبر لينج فى بيت حجب الثراء عنه صروف الدهر. وجعل منه هذا الوجود الملبد على نحو حساس خجولا، فكان يخاف الحشرات، والرعد

ووجوه الموتى. وعندما بلغ الخامسة عشرة، انتقى له أبوه زوجة تخيرها جميلة جدا، لأن فكرة حسن الطالع التى بذل كل جهده ليضمنها لابنه ظلت تغريه لبقية عمره. وكانت زوجة لينج نحيلة كعود من البوص، صبوحة كاللبن الحليب، حلوة كالرضاب، مالحة كالدموع، وبعد الزواج قضى والداه نحبهما، وظل الابن وحيدًا بالمنزل المطلى باللون القرمزى، فى صحبة زوجته الشابة، التى كانت تبتسم بلا انقطاع، وشجرة خوخ كانت كل ربيع تزهر وردا أحمر. وأحب لينج هذه المرأة بقلب صاف كما يحب المرء مرآة دائمة اللمعان، وتميمة للحياة الدائمة. وكان يرتاد بيوت الشاى ليكون معاصرا للموضة ويشجع باعتدال لاعبى الأكروبات والراقصات.

ذات ليلة، فى حانة، التقى بوانج ـــ فو كرفيق على منضدته. وكان الرجل العجوز قد سكر لكى يعيش حالة تساعده على رسم شخص سكير، كان رأسه محنيا إلى جانب، كما لو أنه يجهد نفسه لقياس البعد الذى يفصل يده عن كأسه. وأفلتت خمر الأرز لسان هذا الفنان الصموت، فتحدث وانج، فى ذلك المساء، كما لو كان الصمت حائطا، والكلمات ألوانا قدر لها أن تغطيه.

وبفضله، عرف لينج جمال وجوه الندماء التى يسبح حولها دخان الشراب الساخن، والرونق الداكن لقطع اللحم المشوية على ألسنة النار، واللون الوردى الشهى لبقع النبيذ المنتشرة على المفارش كالتويجات الذابلة. واندفعت هبة ريح عبر النافذة، فتدفق المطر لداخل الحجرة.

وراح وانج ــ فو يعبر للينج عن إعجابه بالخط الأشهب للبرق، فكف لينج، المبهور، عن خوفه من الرعد.

ودفع لينج حساب الرسام العجوز، ولأن وانج ــ فو لا مال لديه ولابيت، عرض عليه بأدب أن يؤويه. ومضيا على الطريق معا، كان لينج يمسك مصباحا، عكس وميضه على البرك أضواء مفاجئة. في ذلك المساء، دهش لينج بمعرفة أن حوائط بيته لم تكن حمراء، كما اعتقد في السابق، وإنما ذات لون برتقالي أكل الدهر عليه وشرب. وفي فناء المنزل، لاحظ وانج ــ فو التكوين الدقيق لجذع، لم يكن قد جذب انتباه أحد إلى ذلك الحين، وقارنه بامرأة شابة ترخي شعرها ليجف. وفي الممشى، راح يتتبع بجذل المسيرة المتأرجحة لنملة على طول شق بالسور، فتلاشى كره لينج لهذه الدواب الصغيرة. عندئذ، ولإدراكه بأن وانج ــ فو أهداه روحا وأحاسيس جديدة، دعا لينج العجوز باحترام ليرقد في الغرفة التي مات فيها والده.

منذ سنوات، كان وانج ــ فو يحلم بعمل صورة نصفية لأميرة من الزمن القديم تعزف على العود تحت شجرة صفصاف. ولم تكن هناك امرأة تعطي انطباعا لاواقعيا كافيا كي تصلح نموذجا له، لكن لينج تمكن من أن يكون ذلك النموذج، بما أنه لم يكن امرأة. ثم تحدث وانج ــ فو عن صورة لأمير شاب يشد القوس تحت شجرة أرز كبيرة. ولم يكن هناك أي شاب في ذلك الزمن يعطي انطباعا كافيا باللاواقعية تجعله يصلح نموذجا. لكن لينج عرض زوجته تحت

شجرة البرقوق فى الحديقة. فرسمها وانج ــ فو فى زى عفريتى بين سحب الغروب، وبكت المرأة الشابة، كون ذلك كان يمثل بالنسبة لها نذير الموت. وما إن أثنى لينج على الصور النصفية التى رسمها لها وانـــج ــ فـــو حتى ذبـــل وجهها، كـــوردة تعرضت لريح ساخنة أو تعرضت لمطر الصيف. وذات صباح وجدت مشنوقة على أفرع شجرة البرقوق الحمراء، وكانت أطراف اللفاع الذى اختنقت به تتموج مختلطة بضفائرها، فبدت أكثر رهافة من المعتاد، نقية كالجميلات اللاتى خلدهن شعراء الزمن الماضى. ورسمها وانج ــ فو مرة أخيرة، فقد كان يحب هذه السحنة الخضراء التى تكسو وجوه الموتى. وسحق له تلميذه لينج الألوان، وتطلبت هذه المهمة قدرا من المثابرة، لأنه نسى أن يخلطها بالدموع.

وباع لينج عبيده، ثم باع طرفه وبعد ذلك باع أسماك النافورة لكى يزود الأستاذ بعلب الحبر القرمزى المستوردة من الغرب. وعندما لم يعد هناك شى بالمنزل ليباع، تركاه، وأغلق لينج من ورائه باب ماضيه. وكان وانج ــ فو قد أصابه التعب من تلك المدينة التى لم تعد الوجوه فيها تسر له بأى سر للقبح أو للجمال، وراح الأستاذ والتلميذ يتسكعان معا على طرق مملكة هان.

كانت شهرتهما تسبقهما إلى القرى، ومداخل القصور والقلاع ودهاليز المعابد التى يأوى إليها المسافرون عند الغسق. ويمكن القول إن وانج ــ فو كانت لديه القدرة على إسباغ الحياة على رسومات وجوههم بلمسة أخيرة ملونة يضفيها إلى الأعين. كان المزارعون

يأتون إليه ضارعين أن يرسم لهم كلب حراسة، كما كان السادة يطلبون منه صورا لهم فى زى الجنود. وأسبغ الرهبان عليه شرف الحكمة، وكان الناس من عامة الشعب يخشونه كما لو أنه كان ساحرا. وقد أسعدت وانج هذه الآراء المختلفة التى سمحت له بأن يدرس من حوله تعابير العرفان، والخوف، والاحترام.

وراح لينج يتسول الطعام، ويسهر على راحة الأستاذ أثناء نومه ويتحين لحظات نشوته لكى يدلك له قدميه. وعند بزوغ النهار، أثناء نوم العجوز، كان يذهب لكى يتصيد المناظر الطبيعية بخجل وراء باقات الزهور. وبالمساء، عندما كان الأستاذ المحبط يلقى بفرش ألوانه على الأرض، كان يجمعها وينظمها. وعندما كانت تصيب وانج نوبات الحزن ويتحدث عن تقدمه فى السن، كان لينج يبتسم وهو يشير له إلى الجذع القوى لشجرة صندل عجوز، وعندما كانت تنتابه حالات السعادة ويبدأ المزاح، كان لينج يبدى أدبًا شديدًا وهو يستمع إليه.

ذات يوم، عند غروب الشمس، وصلا إلى ضاحية من ضواحى المدينة الإمبراطورية، وبحث لينج عن نزل يمضى فيه وانج ـ فو ليلته. وبينما راح العجوز يتغطى بمزقه، رقد لينج ملتصقا به لكى يدفئه، لأن الربيع كان قد حل بالكاد، ومازالت الأرض الطينية بعد متجمدة. عند الفجر سمعت أصوات أقدام ثقيلة تدب فى ممشى النزل، وتعالت الهمسات الخائفة لصاحب الفندق، والصيحات الآمرة

بلغة بربرية. وارتعد لينج، وهو يتذكر أنه سرق فى المساء كعكة أرز من أجل وجبة الأستاذ. ولم يكن هناك شك فى أنهم جاءوا لاعتقاله، وتساءل عمن سيقوم غدا بمساعدة وانج ـ فو على عبور مخاضة النهر المقبل. ودخل جنود الشرطة بالمصابيح. ونفذت أضواء الشعل من الورق المزركش ملقية انعكاسات حمراء أو زرقاء على خوذاتهم الجلدية. وراح حبل قوس يهتز فوق أكتافهم. وانبعثت من أشرس واحد فيهم فجأة أصوات زمجرة بلا سبب. ووضعوا أيديهم بعنف على رقبة وانج ـ فو، الذى لم يتمكن من منع نفسه من ملاحظة أن أكمامهم لم تكن متلائمة مع لون معاطفهم.

ومستندا إلى تلميذه، تبع وانج ـ فو الجند وهو يترنح على طول الطرق غير المستوية. وراح العابرون المحتشدون يتهكمون من هذين المجرمين المقتادين بغير شك لتقطع أعناقهما. وكان الجنود يجيبون على كل سؤال لوانج بتقطيبة وحشية. ونظر لينج اليائس لأستاذه مبتسما، بينما كانت أيديهما المقيدة تعانى من شدة القيد، وكانت تلك بالنسبة له طريقة أكثر رقة من البكاء.

ثم وصلوا إلى عتبة القصر الإمبراطورى، الذى انتصبت أسواره البنفسجية فى وضح النهار كهدب طويل من أهداب الغسق. وعبر الجنود بوانج ـ فو قاعات مربعة أو دائرية لاتحصى رمزت أشكالها للفصول، وللجهات الأصلية، وللذكر والأنثى، ولطول العمر، ولامتيازات السلطة.

كانت الأبواب تدور حول نفسها مقلدة نوتة موسيقية، وكان تنسيقها محكما متشابها إذا ما ذرعت القصر من الشرق إلى الغرب. كان كل شيء فى تناغمه يشي بجبروت ودقة فوق بشرية، ويعطى الشعور بأن الأوامر التى يتم النطق بها هنا نهائية ومرعبة كحكمة الأجداد. ثم تخلخل الهواء، أخيرا، وصار الصمت عميقا بحيث لايمكن حتى لشخص يجرى تعذيبه أن يجرؤ على الصياح، ورفع أحد الخصيان ستارة، وارتعد الجنود كالنساء، ودخل الجمع الصغير القاعة التى يجلس فيها على العرش ابن السماء.

كانت قاعة تخلو من الجدران، تستند إلى دعائم من أعمدة سميكة من الحجر الأزرق، وكانت بها حديقة مزهرة على الناحية الأخرى من الأعمدة المرمرية، وكانت كل زهرة من الزهور فى غياضها تنتمى لنوع نادر جيء به مما وراء المحيط. ولكن لم تكن تصدر عن أى منها رائحة، خوفا من أن تثير روائحها بلبلة للإمبراطور أثناء تأملاته. واحتراما للصمت الذى تسبح فيه أفكاره، لم يسمح لأى عصفور بالوجود داخل هذا النطاق، الذى تم اصطياد النحل منه لمنع أزيزه. وقام حائط ضخم بفصل الحديقة عن بقية العالم، حتى لايسمح للريح، التى تمر فى الخارج بالكلاب النافقة وجثث ميادين المعارك، من أن تمس أكمام الإمبراطور.

كان الإمبراطور جالسا على عرش من حجر اليشب، وكانت يداه متغضنتين كيدى رجل عجوز، فى حين أنه كان قد بلغ العشرين

من العمر بالكاد. كان ثوبه أزرقا ليصور الشتاء، وأخضرًا ليذكر بالربيع، ووجهه جميلا، لكنه هادئ كمرآة وضعت فى مكان شديد العلو حتى لاتنعكس عليها سوى صور الأفلاك والسماء الزرقاء. وقد وقف إلى يمينه وزيره المختص بشئون المتع الكاملة، وإلى يساره مستشاره لشئون الأعاصير المحكمة. أما أفراد حاشيته، فقد اصطفوا إلى جوار الأعمدة، يرهفون السمع لكى يستقبلوا أية كلمة تخرج من شفتيه، فقد تعود دائما الحديث بصوت خفيض.

ــ أيها التنين السماوى المقدس، قال وانج ــ فو وهو يخر ساجدًا، إننى عجوز، وفقير، وضعيف. أنت كالصيف، وأنا كالشتاء. وأنت لك ألف حياة، وليس لى إلا واحدة، فى طريقها للزوال. ماذا فعلت لك؟ لقد أوثقوا يدى، اللتين لم تتسببا لك أبدا فى أى ضرر.

ــ أتسألنى ماذا فعلت لى، أيها العجوز وانج ــ فو؟ قال الإمبراطور.

كان صوته شجيًا لدرجة إثارة الرغبة فى البكاء. وقد رفع يده اليمنى، التى أظهرها انعكاس بلاط اليشب خضراء كطفيليات أعماق البحر، فانبهر وانج ــ فو من رهافة أصابعه وطولها، وراح يبحث فى ذاكرته ما إذا لم كان قد رسم للإمبراطور، أو لأى من أولاده، صورة حقيرة يستحق الموت عقابا عليها. لكن ذلك كان احتمالا مستبعدا، لأن وانج ــ فو لم يكن إلى هذه اللحظة قد تردد على بلاط الإمبراطور إلا فيما ندر، فقد كان يفضل أكواخ المزارعين، وضواحى المحظيات بالمدن، وبارات الأرصفة التى يتشاجر فيها الحمالون.

ــ أنت تسألنى ماذا فعلت لى، أيها العجوز وانج ــ فو؟ عاود الإمبراطور وهو يحنى عنقه النحيل باتجاه الرجل العجوز الذى أرهف السمع إليه. سأقول لك. ولكن، وكما أن سم الآخرين لايمكنه التسلل فينا إلا عبر فتحاتنا التسعة، ولكى أضعك أمام أخطائك، على أن أجعلك تذرع ممرات ذاكرتى، وأن أقص عليك حياتى. لقد جمع أبى مجموعة من لوحاتك فى أكثر الغرف سرية بالقصر، فقد رأى ضرورة أن تنأى الشخوص المرسومة بها عن نظر الجهلاء، وألا تظهر إلا لمن لا يستطيعون خفض أعينهم عنها. وفى هذه القاعة، أيها العجوز وانج ــ فو، نشأت أنا، وقد نظمت هذه اللوحات من حولى الوحدة التى مكنتنى من أن أكبر. ولتجنب أن يتلطخ نموى بتلوث الأنفس البشرية، أبعد عنى الحفيف الذى يثيره أتباعى المقبلون، ولم يسمح لشخص بالمرور أمام العتبة، خوفا من أن يصل ظل هذا الرجل أو تلك المرأة لعندى. فحتى القليل من الكهول الذين سخروا لخدمتى لم يخالطونى إلا فى حدود الضرورات القصوى، ودارت الساعات دورتها، وكانت ألوان رسوماتك تشتعل مع الفجر، وتشحب مع الغسق. وبالمساء، عندما كان يمتنع على النوم، كنت أنظر إليها.

لعشر سنوات تقريبا، ظللت أحدق فيها كل ليلة. وبالنهار، وأنا جالس على بساط أحفظ تصميمه عن ظهر قلب، واضعا راحتى المبسوطتين على ركبتين من الحرير الأصفر، كنت أحلم بالفرح الذى

سيأتى لى به المستقبل. وكنت أمثل العالم لنفسى، وبلاد هان فى منتصفه، بما يشبه السهل المستوى المحفورة فيه باليد الخطوط المقدرة للأنهار الخمسة. وكل شيء حولها. البحر الذى تولد فيه الوحوش الخرافية، ووراءه بعض الشيء، الجبال التى تقيم السماء. ولكى أتمكن من بسط الأشياء كلها أمامى، كنت أستعين برسومك. لقد جعلتنى أعتقد أن البحر يشبه سماط الماء المفرود فى لوحاتك القماشية، وأنه أزرق كحجر سائل من الياقوت لا يمكن أن يتغير لونه، وأن النساء ينغلقن وينفتحن كالأزهار، وأنهن يشبهن فى هذا المخلوقات التى تتقدم، مدفوعة بفعل الريح فى حدائقك، وأن المقاتلين الشباب دقيقى الحجم الذين يتناوبون الحراسة فى قلاعك الجبهوية كانوا هم أنفسهم السهام التى بوسعها اختراق القلب. وفى سن السادسة عشرة، وجدت الأبواب التى تفصلنى عن العالم تتفتح لى، فصعدت إلى شرفة القصر كى أراقب الغيوم، ولكنها كانت أقل جمالا من غيوم غسقك. فأمرت بالمحفة، ورحت أترجرج على الطرقات التى لم أكن أتوقع أن أرى بها الطين ولا الأحجار، وذرعت أقاليم الإمبراطورية فلم أعثر على حدائقك المليئة بالنساء اللاتى يشبهن (الحباحب)، نساءك اللواتى كانت أجسادهن ذاتها حدائق. وجعلتنى أحجار الشواطئ أمقت المحيطات، ووجدت أن دماء المعدمين أقل احمرارا من الرمان المصور بلوحاتك، وحرمتنى حشرات القرى من رؤية جمال حقول أرزك، ونفرنى لحم النسوة الأحياء كأنه اللحم الميت المعلق بخطاطيف الجزارين، وأصابتنى الضحكات الغليظة لجنودى

بالغثيان. لقد كذبت على يا وانج ــ فو، أيها النصاب العجوز، فالعالم ليس سوى كومة بقع غامضة، ملقاة فى الفراغ بواسطة رسام عديم الشعور، تمحوها أدمعنا باستمرار. وليست مملكة هان أبدا بأجمل الممالك، ولست أنا الآخر بإمبراطور. فالإمبراطورية الوحيدة التى تستحق مشقة حكمها هى تلك الماثلة فى رسومك، أيها العجوز وانج ــ فو، فأنت وحدك الذى تتسلطن فى سلام، من خلال الألف منحنى والعشرة آلاف لون، على الجبال المغطاة بالجليد الذى لا يذوب، وعلى حقول النرجس التى لا تذبل. وهو ما جعلنى، يا وانج ــ فو، أفكر كيف سأعذبك، فأنت صاحب السحر الذى جعلنى أكره كل ما أملك، وجعلنى أرغب فى كل ما ليس لدى. ولكى أسجنك فى السجن الوحيد الذى لاتستطيع الخروج منه، قررت أن تسمل عيناك، لأن عينيك، يا وانج ــ فو، هما البابان السحريان اللذان يفتحان مملكتك. كما قررت كذلك قطع يديك، لأنهما الطريقان اللذان يتفرعان عشرة أفرع تقودك إلى قلب إمبراطوريتك. أفهمتنى، أيها العجوز وانج ــ فو؟.

عند سماع هذه الجملة، سحب التلميذ لينج من حزامه سكينا ثلما وألقى بنفسه على الإمبراطور. وتصدى دونه حارسان فمنعاه. عندئذ تبسم ابن السماء وأضاف وهو يتنهد:

ــ كما أننى أكرهك أيضا، أيها العجوز وانج ــ فو، لأنك عرفت كيف تجعل الناس يحبونك.

اقتلوا هذا الكلب.

عندئذ قفز لينج صوب الأمام كى يتفادى أن يصل دمه إلى ثوب الأستاذ فيبقعه. وشرع أحد الجنود سيفه، فانفصلت رأس لينج عن عنقه، كزهرة قطعت من فرعها. وحمل الخدم بقيته، فلفتت انتباه وانج ــ فو اليائس، وشدت إعجابه تلك البقعة الكبيرة القرمزية التى صنعها دم تلميذه على أحجار البلاط الخضراء. وأشار الإمبراطور، فانبرى خصيان وجففا أعين وانج ــ فو.

ــ اسمع، أيها العجوز وانج ــ فو، قال الإمبراطور، جفف دموعك، فليس هذا وقت البكاء. فلابد أن تظل عيناك مضيئتين، حتى لايحترق ما بقى لهما من نور ضئيل بفعل البكاء. وليس الحقد الذى يجعلنى أشتهى موتك، ولا التوحش الذى يجعلنى أريد رؤيتك تتعذب هما كل ما لدى لك فحسب. فلدى مشاريع أخرى، أيها العجوز وانج ــ فو. لأننى أملك ضمن مجموعة أعمالك الموجودة عندى لوحة بديعة تصور الجبال، ومصاب الأنهار والبحر، بشكل صغير جدا بلاشك، لكن بساطتها تجعل ما فيها من أشكال تتألق، كأنها تكوينات تتباهى على حافة فلك من الأفلاك. لكن هذه اللوحة غير مكتملة، يا وانج ــ فو، رائعتك ما زالت بعد تخطيطا، فبالطبع، فى اللحظة التى كنت ترسمها فيها، وأنت جالس فى واد فريد، لعلك لاحظت طائرا عبر، أو طفلا يتعقب هذا الطائر. وجعلك منقار الطائر أو ألعاب الطفل تنسى طيات الموج الزرقاء. فلم تكمل أهداب معطف البحر،

ولا ضفائر طحلب الصخور. يا وانج ــ فو، أريد منك أن تكرس ساعات الضوء الباقية لعينيك فى إنهاء هذه اللوحة. التى ستضم بهذا الشكل الأسرار الأخيرة التى تجمعت على امتداد عمرك. وليس من شك فى أن يديك، اللتين على وشك السقوط، لن ترتجفا على نسيج الحرير، وسوف يعبر اللامتناهى عن نفسه فى عملك بظلال سوء طالعك. فلايوجد شك فى أن عينيك، القريبتين هكذا من الفناء، لن تكتشفا أية علاقات تعبر عن الشعور الإنسانى. هذا هو مشروعى، أيها العجوز وانج ــ فو، وبوسعى إجبارك على إتمامه. فلو رفضت هذا العمل، قبل أن تسمل عيناك، سأحرق كل أعمالك، وسيصبح حالك كحال الأب الذى ذبحوا كل أولاده ودمروا آماله فى الذرية. ولكن، فكر بالأحرى، لو شئت، فى أن هذا الطلب الأخير ليس إلا تعبيرا عن طيبتى، لأننى أعرف أن اللوحة هى معشوقتك الوحيدة التى تغار عليها، لذا فإن أمرى بالفرش، وبالألوان وبالحبر لك كى تشغل ساعاتك الأخيرة، كالتصدق ببنت هوى على رجل ذاهب للإعدام.

وبإشارة من الإصبع الصغير للإمبراطور، حمل اثنان من الخصيان باحترام اللوحة غير المكتملة التى خط فيها وانج ــ فو صورة البحر والسماء، فجفف وانج ــ فو دموعه وابتسم، لأن هذا التخطيط الصغير ذكره بشبابه. كان كل ما فى اللوحة يشهد بطهارة النفس، التى لم يعد بوسع وانج ــ فو بعد أن يدعيها، لكنها كان ينقصها مع ذلك شيء ما، لأنه فى الحقبة التى رسمها فيها لم يكن بعد

قد تأمل على نحو كاف أشكال الجبال، ولا الصخور التى تسبح خواصرها الجرداء بالبحر، ولم يكن قد أدرك بعد ذلك تلك الأحزان التى تقتحم المرء عند الغروب. وتخير وانج ـ فو فرشاة قدمها له أحد العبيد وشرع يبسط على البحر غير المكتمل سيلا من اللون الأزرق. وأقعى خصى على مقربة منه يهرس له الألوان، ولم يكن يجيد هذا العمل، فتحسر وانج ـ فو أكثر من أى وقت مضى على تلميذه لينج.

وشرع وانج فى وشى طرف جناح سحابة تتكئ على جبل باللون الأحمر. ثم أضاف لسطح البحر بعض تغضنات صغيرة جعلت الإحساس بسكينته يزداد عمقا. وابتل بلاط اليشب فجأة على نحو غريب، ولم يلحظ وانج ـ فو، المستغرق فى رسمه، أنه كان يعمل وهو جالس بالماء.

وتحت ضربات فرشاة الرسام، تضخم زورق هزيل وصار يحتل مقدمة اللوحة الحريرية، وراحت الضجة المنتظمة لمجدافيه تتعالى فى المدى فجأة، وتسارعت ونشطت كأنها خفقات أجنحة. واقتربت الضجة أكثر، وغمرت بنعومة كل القاعة، ثم توقفت، وتعلقت قطرات مرتجفة بمجدافى البحار.

وانطفأ الحديد الأحمر المصوب جهة أعين وانج على جمر الجلاد. وشب أفراد الحاشية المشلولون بفعل المراسيم، والذين غمرهم الماء للأكتاف على أصابع أقدامهم. وارتفع الماء فى النهاية

حتى بلغ مستوى قلب الإمبراطور. وصار الصمت عميقا لدرجة سمع فيها صوت تساقط الدموع.كان بحار الزورق هو لينج، بثوبه القديم الذى ظل يرتديه دائما، وبكمه الأيمن الذى بدا حاملا آثار تمزقات لم يجد فى الصباح وقتا لرتقها. قبل حضور الجند، وكان يلف رقبته بلفاع غريب أحمر.

قال له وانج ـ فو بصوت خفيض وهو يستمر فى الرسم:

ـ لقد اعتقدت أنك مت.

ـ إنك حى، قال لينج باحترام، فكيف لى أن أموت؟

وأعان لينج الأستاذ على الصعود للزورق. وانعكس سقف اليشب على الماء، بما أوحى أنه يبحر فى مغارة. كانت ضفائر أفراد الحاشية الطافية تتموج على سطح الماء كالثعابين، وكانت رأس الإمبراطور الشاحبة عائمة عليه كأنها زهرة لوتس.

ـ انظر، يا تلميذى، قال وانج ـ فو بأسى، هؤلاء التعساء سوف يهلكون، إن لم يكونوا قد هلكوا. أنا لم يخطر لى أبدا أن بالبحر ماء يكفى لإغراق إمبراطور. فهل هذا ما حدث؟

ـ لاتخش شيئا، يا معلمى، غمغم التلميذ. فسرعان ما يجدون أنفسهم قد جفوا ولن يذكروا حتى أن الماء بلل أكمامهم، فقط الإمبراطور هو الذى سيحتفظ فى قلبه ببعض المرارة تجاه الماء. هؤلاء الناس لم يخلقوا ليتوهوا داخل لوحة.

وأضاف لينج:

ــ البحر جميل، والريح حسنة: وطيور البحر تقيم أعشاشها. لنرحل، يا أستاذى لبلاد ما وراء الموج.

ــ لنرحل، قال الرسام العجوز.

وأمسك وانج ــ فو بالدفة، وعكف لينج على المجدافين، وغمر إيقاع التجديف القاعة كلها من جديد، على نحو ثابت ومنتظم كضربات القلب. وانخفض مستوى الماء بشكل غير محسوس حول الصخور المنتصبة التى صارت من جديد أعمدة، وسرعان ما راحت تلتمع بعض برك الماء القليلة على البلاط الكابى لليشب.

وجفت أثواب أفراد الحاشية، ولكن ظلت هناك سبخة زبد عالقة بهدب معطف الإمبراطور. كانت اللوحة التى أكملها وانج ــ فو موضوعة لا تزال على الطاولة المرجانية. وقد احتل كل مقدمتها زورق، راح يتباعد شيئا فشيئا، تاركا خلفه أثرا دقيقا راح ينغلق وراءه البحر الساكن. ولم يعد بمقدور أحد أن يميز وجهى الرجلين بالمركب. لكن البعض كان مازال يلحظ لفاع لينج الأحمر، ولحية وانج ــ فو الطائرة فى الريح.وضعف دفق المجاديف، ثم توقف وتلاشى بفعل المسافة. وراح الإمبراطور، المنحنى للأمام، وهو يضع يده على عينيه، يراقب ابتعاد زورق وانج الذى لم يعد بعد إلا بقعة لا يلحظها أحد فى شحوب الغسق. وتعالى بخار ذهبى ثم انعطف على البحر. وأخيرًا، دار الزورق حول صخرة تسد مدخل

عرض البحر، وسقط ظل شاطئ صخرى عليه، فانمحى الأثر على السطح المقفر، واختفى الرسام وانج ـ فو وتلميذه لينج إلى الأبد فى بحر اليشب الأزرق الذى أبدعه.

ابتسامة ماركو

كانت الباخرة تسبح باسترخاء فوق المياه الراكدة ، كأنها قنديل بحر مهمل. وحلقت طائرة لها أزيز لا يطاق لحشرة مهتاجة فى الفراغ الضيق لسماء محصورة بين الجبال. لم يكن الوقت قد جاوز بعد الثلث الأول من بعد ظهر صيفى طويل، وقد اختفت الشمس بالفعل خلف الخواصر القاحلة لجبال ألب مونتينجرو التى تناثرت بها بعض الأشجار الناحلة، واتخذ البحر، الذى كان لونه أزرق فى الصباح، صبغة كابية داخل الزقاق البحرى الطويل الذى يقع موقعا غريبا على ضفاف بلاد البلقان.

كانت التكوينات المتواضعة والمربوعة للبيوت، وللحجر الصحى بذلك المشهد سلافية الطابع. لكن انطفاء الألوان، والأنفة الجرداء للسماء كانت تحض كذلك على التفكير فى الشرق المسلم. ونزل غالبية الركاب إلى الأرض وراحوا يتفاهمون مع رجال الجمارك المرتدين الأبيض والجنود اللطفاء المتمنطقين بالخناجر المثلثة، البارعى الجمال كملائكة الجيوش المصورين باللوحات. بينما ظل العالم الأثرى اليونانى، والباشا المصرى، والمهندس الفرنسى على سطح الباخرة، وقد طلب المهندس لنفسه بيرة، وراح الباشا يشرب الويسكى، والعالم الأثرى ينعش نفسه بشراب الليمون.

ـ هذا البلد يثيرني، قال المهندس. فميناء كوتور هذا وميناء راغوس هما بالقطع المنفذان الوحيدان على البحر المتوسط لهذا البلد السلافى الكبير الممتد من البلقان إلى الأورال، والذى لا يعرف الحدود المتغيرة لخارطة أوربا ويدير ظهره للبحر، ولا يمر به سوى الشقوق المتشابكة للبحر القاصبى، القادمة من فنلندا، ومن البحر الأسود، أو من السواحل الدلماسية. فى هذه القارة البشرية الواسعة لم يجر تدمير لا نهائية الأعراق وكذلك الوحدة العجيبة للمجموع بأكثر مما تدمر تعددية الأمواج الإيقاع الرتيب للبحر. لكن ما يعنينى فى هذه اللحظة لم يعد هو الجغرافيا ولا التاريخ، وإنما "كوتور" أو ميناء مصاب كاتارو كما يدعونه... كوتورز، الشبيه بالجسر الذى نراه من هذه الباخرة الإيطالية، كوتور المتوحش، المختفى تماما، فى طريقه المتعرج الذى يصعد إلى "ستينه"، كوتور الأكثر خشونة تقريبا من الأساطير والأغانى والإيماءات السلافية، كوتور الخائن الذى عاش فيما مضى تحت حكم مسلمى ألبانيا، الذين، كما تفهم ياباشا، لم يكن الشعر الملحمى الصربى عادلا أبدا معهم. ولن تقول لى، يا لوقيادس، أنت الذى تعرف الماضى كما يعرف مزارع أكثر زوايا مزرعته اختباء، أنك لم تسمع بماركو كراليفيتش؟

ـ إننى عالم أثرى، قال اليونانى، وهو يضع كأس ليمونه. ومعرفتى به لا تخرج عن إطار الأحجار المنحوتة، وبطلك الصربى ينتمى بالأحرى للحم الحى، ومع ذلك، فقد أثار ماركو هذا اهتمامى أنا أيضا، ووجدت أن أثره يذهب لأبعد من البلاد التى اخترقتها

أسطورته، ولقد عثرت على أثر لحكايته هناك، على أرض يونانية صرفة، حيث أقامت الديانة الأرثوذكسية عددا من الأديرة الجميلة.

ـ فى "مونت أثوس"، قاطع المهندس. فالعظام الضخمة لماركو كراليفيتش ترقد فى مكان ما من هذا الجبل المقدس الذى لم يتغير فيه شيء من القرون الوسطى، فيما عدا ربما نوعية النفوس، حيث يوجد ستة آلاف كاهن ذوو جدائل تشبه الكعك على رؤوسهم وذقون يتطاير شعرها الطويل، وما زالوا يصلون من أجل خلاص حماتهم الأتقياء، من أمراء التروبيزوند، الذين انقرض أصلهم بالطبع منذ قرون. كم هو مريح التفكير بأن النسيان أكثر تمهلا، وأقل شمولا مما يفترض البعض، فما زال هناك بعد مكان بالعالم الذى تعيش فيه عشيرة من زمن الحروب الصليبية تحيا فى صلوات بعض الكهنة الكهول! وإذا لم أكن مخطئا، مات ماركو فى معركة ضد العثمانيين، بالبوسنة أو بلاد الكروات، لكن رغبته الأخيرة كانت أن يدفن فى سيناء بالعالم الأرثوذكسى، ونجح أحد الزوارق فى نقل جثمانه إليها، على الرغم من صخور بحر المشرق وحواجز السفن الحربية التركية. إنها قصة جميلة، وقد جعلتنى أفكر، لا أدرى لم، فى العبور الأخير للملك آرثر...

"هناك أبطال بالغرب، ولكن يبدو أنهم نصبوا من خلال ترسانة مبادئهم كما نصب فرسان العصور الوسطى عبر قرقعات حديدهم"، ومع هذا الصربى المتوحش، نجد البطل متجردا تماما. والأتراك على يقين من أن ماركو تسرع فى الاعتقاد بأن شجرة سنديان قد سقطت

عليهم من الجبل. أقول لكم أنه فى ذلك الوقت كانت مونتنيغرو تابعة للإسلام، وكان عدد العصابات الصربية قليلا للغاية بشكل لا يسمح لهم بأن يختصموا مع "المختن" بشكل معلن فى شأن ملكية تسيرناجورا، والجبل الأسود، الذى يتسمى باسمه هذا البلد.

وقد أقام ماركو كرابيبفيتش علاقات سرية فى البلد غير المسيحى مع مسيحيين تظاهروا بالإسلام، وموظفين ساخطين، وباشوات مهددين بزوال الحظوة وبالموت، وقد صار ضروريا له أكثر فأكثر أن يجتمع مع المتواطئين معه، لكن طول قامته أعاقه عن الحركة فى بلاد العدو، فقد تنكر فى هيئة شحاذ، وموسيقى أعمى، وحتى فى هيئة امرأة، ورغم أن هذه الهيئه التنكرية الأخيرة كانت ممكنة بسبب جماله، فقد تمكن البعض من التعرف عليه بسبب طول قامته الذى يناهز طول ظله. ولم يتطلب الأمر كذلك التفكير فى إرساء زورق بمكان مقفر من الشاطئ، فهناك عدد لا يحصى من الحراس، يتلبدون فيما بين الصخور، جاهزين لاعتراض هذا الماركو الوحيد والخارج وهم مستمرون فى المراقبة بلا كلل. ولكن بالضبط حيث يمكن رؤية قارب، كان بوسع سباح ماهر أن يختبئ، ولا يعرف مكانه سوى السمك بين ماءين، وفتن ماركو الأمواج، وسبح أيضا كعوليس، جاره فى القديم من الأزمان بإيثاكا.

وقد خلب أيضا لب النساء، فقد قادته القنوات المتعرجة للبحر على الأرجح إلى كوتور، أسفل منزل خشبى منخور تماما لاح من

تحت اندفاع الموج، كانت أرملة باشا "سكوتاري" تقضى لياليها به تحلم بماركو وتقضى أيامها فى انتظاره.

ودعكت جسمه المتجمد من قبلات البحر الناعمة بالزيت، وجففته فى سريرها بغير علم من الخدم، وسهلت له لقاءاته الليلية مع أعوانه والمتواطئين معه. وفى الساعات الأولى من النهار، كانت تنزل إلى المطبخ الذى ما يزال بعد خاليا لتعد له الأطعمة التى يحب أكلها أكثر من غيرها. واستسلم ماركو لأثدائها الثقيلة، وأفخاذها المكتنزة، وحاجبيها اللذين يتوجان منتصف جبهتها، وللرغبة الشرهة والحذرة لامرأة ناضجة، وكظم غيظه حين رآها تبصق عندما ركع وقام بعمل علامة الصليب.

وذات ليلة، عند بزوغ النهار عندما كان يفكر فى الذهاب إلى راغوس سباحة، نزلت الأرملة كالعادة لتعد له وجبته، وحالت دموعها دون أن تطبخ بالعناية التى تعودتها، فصنعت لسوء الحظ طبقا من لحم الجدى المطهى جيدا. وشرب ماركو، ففاض صبره، وأمسك بشعرها بيديه الملطخة بالصلصة وصاح:

ـ يا كلبة الشيطان، ألديك نية إطعامى هذه العنز ذات المائة ربيعا؟

ـ لقد كانت بهيمة جميلة، أجابت الأرملة، كما أنها أكثر أفراد القطيع شبابا.

ـ لقد كانت قاسية كلحمك أيتها الساحرة، كما أن لها نفس

الرائحة الملعونة، قال الفتى المسيحى الظامئ، عسى أن يغليك الله مثلها فى نار جهنم.

وبركلة من قدمه، قذف بطبق اللحم من النافذة المفتوحة على مصراعيها على البحر.

وغسلت الأرملة الأرض التى تبقعت بالدهن فى صمت، وتورم وجهها من البكاء. ولم يبد عليها أى تغير يذكر حتى الفجر، ثم، عند طلوع النهار، عندما بدأت ريح الشمال تنفخ عصيانها بين أمواج الخليج، طلبت برقة من ماركو أن يؤخر رحيله. ووافق هو، ولما اشتد القيظ، أراح جسده للقيلولة. وعند استيقاظه، ولأنه تمطى باسترخاء أمام النافذة، محتميا من نظرات العابرين بالضلف المتشابكة، شاهد التماع السيوف.

كان هناك فيلق من جنود الترك يحاصرون المنزل، ويسدون كل المنافذ. وهرع ماركو إلى الشرفة التى تطل من حالق على البحر، وكانت الأمواج المتقافزة تطرقع على الصخور مع ضجيج رعد السماء. ونزع ماركو عن نفسه قميصه، وأحنى رأسه للعاصفة الأولى التى لا يغامر فيها أى زورق، ومرت الجبال من فوقه، فكان ينثنى تحتها. وهاجم الجنود المنزل بقيادة الأرملة فلم يعثروا على أى أثر للعملاق الشاب المختفى، وأخيرا، دلهم القميص الممزق والسور المخترق للشرفة على الأثر الحقيقى، فرمحوا إلى الشاطئ وهم يصرخون من الغيظ والرعب، وتراجعوا رغما عنهم، فى كل مرة

تندفع فيها موجة أكثر شراسة نحو أقدامهم. وخيل لهم أن هدير الموج هو صوت ضحكات ماركو، وأن هذا الوقح يبصق الزبد فى وجوههم، وخلال ساعتين، سبح ماركو بغير أن يتقدم ذراعا واحدة، وكان أعداؤه يشاهدون رأسه، لكن الريح كانت تنال منهم، واختفى، ثم عاود الظهور تحت نفس الرحى الخضراء. وأخيرا، أغرقت الأرملة بصلابة لفاعها باستخدام الحزام الطويل المرن لأحد الألبان، وتمكن صائد تونة حاذق من أن يوقع بماركو فى هذه الأنشوطة الحريرية، وكان على السباح نصف المختنق أن يترك نفسه لكى يتجرجر حتى الشاطئ.

كان ماركو خلال رحلات صيده فى الجبال ببلده، قد شاهد فى غالب الأحيان الحيوانات التى تدعى الموت لكى تتجنب أن يجهز البعض عليها. وقادته غريزته لأن يقلد هذه الحيلة. فقد بدا الشاب كابى اللون عندما أعاده الترك إلى الشاطئ، متيبسا وباردا كجثة مضى على موتها ثلاثة أيام، وكان شعره ملطخا بالزبد الذى التصق على وجنتيه الغائرتين، وعيناه جامدتان لا ينعكس عليهما اتساع السماء والمساء، وقد تصلبت شفتاه اللتان ملحهما البحر على فكيه المتشنجين. وتدلى ذراعاه المرتخيان، وعاق صدره الثخين عن سماع دقات قلبه. وانحنى وجهاء القرية على ماركو، ودغدغت ذقونهم الطويلة وجهه، ثم رفعوا رؤوسهم جميعا وصاحوا فى صوت واحد:

ـ يا الله! إنه ميت كطوبين عفن، وككلب نافق. القوا به فى البحر الذى يغسل القاذورات، كى لا تتلوث أرضنا بجسده.

لكن الأرملة الشرسة شرعت فى البكاء، ثم فى الضحك.

ـ إن الأمر بحاجة لأكثر من عاصفة إغراق ماركو، قالت، وأكثر من حبل لشنقه. فهذا الذى ترونه ليس بميت. ولو قذفتم به فى البحر، سوف يسحر الأمواج كما سحرنى، أنا المرأة المسكينة، وسوف تعيده الأمواج إلى بلده، أحضروا مسامير ومطرقة، واصلبوا هذا الكلب كما تم صلب إلهه الذى لن يهب لنجدته، وسوف ترون ما إذا كانت ركبتاه لن تخطئا الألم، وما إذا كان فمه الملعون لن يطفح بالصراخ.

وجاء الشرطيون بالمسامير وبمطرقة على منضدة قلفطة لأحد الزوارق، وخرقوا يدى الصربى الشاب، ثم خرقوا قدميه جزءا جزءا، لكن جسده المعذب ظل ساكنا، ولم ترجف أى رعدة هذا الوجه الذى بدا لا يشعر بشىء، فحتى الدم لم ينزف من لحمه المفتوح إلا بقطرات بطيئة وقليلة، لأن ماركو كان يتحكم فى شرايينه، كما يتحكم فى قلبه. عندئذ، رمى أكبر الوجهاء سنا مطرقته وصاح بصوت حزين:

ـ ليسامحنا الله على أننا حاولنا صلب ميت! اربطوا حجرا كبيرا برقبة هذا الجثمان، لكى توارى الأعماق خطأنا، وكى لا يعيده البحر إلينا.

ـ لابد من أكثر من ألف مسمار، ومن مائة مطرقة لصلب ماركو كراليفيتش، قالت الأرملة الشريرة، أحضروا فحما متقدا

وضعوه على صدره، وسوف ترونه يتلوى من الألم، كدودة كبيرة مسلوخة.

وجاء الشرطيون بالجمر على موقد من مواقد القلفطة، ووضعوا كومة دائرية كبيرة على صدر السباح المتجمد بفعل البحر، واشتعل الفحم، ثم انطفأ وصار أسود كالزهور الحمراء عندما تموت. وصنعت النار بصدر ماركو دائرة متفحمة، شبيهة بعلامات الجز الدائرية التي تتركها على العشب رقصات السحرة، لكن الغلام لم يئن، ولم يختلج له رمش.

ــ يا الله، قال الشرطيون، لقد أخطأنا، لأن الله وحده صاحب الحق في تعذيب الموتى. لسوف يأتي أصهاره وأبناء عمومته ليطالبونا بالسبب الذي جعلنا ننتهكه، لذا فعلينا أن نغرقه في جوال نصفه ملىء بالأحجار الكبيرة، حتى لا يشعر البحر نفسه بأن ما في الجوال هو الجسد الذي نلقمه له ليلتهمه.

ــ أيها التعساء، قالت الأرملة، لسوف يشق بذراعه كل القماش ويدفع عنه كل الأحجار. ولكن أحضروا حالا كل فتيات القرية الشابات، ومروهن بأن يرقصن في دائرة على الرمل، وسوف نرى جيدا ما إذا كان الحب سيعذبه.

ونودى على الفتيات الشابات، فارتدين على عجل أردية العيد، وأحضرن معهن الطبول والنايات، وأمسكن بأيدى بعضهن ليرقصن في دائرة حول الجثة، وأمسكت أجملهن منديلا أحمر في يدها، وبدأ

الرقص. وكانت هذه تعلو صاحباتها برأسها السمراء ورقبتها البيضاء، وكانت كالغزال الذى يقفز، وكالصقر الذى يطير. وظل ماركو، الذى أنعشه ساقاها العاريتان ساكنا بلا حراك، لكن قلبه المستثار راح يدق شيئا فشيئا بطريقة عنيفة وغير منتظمة. وكانت دقاته قوية لدرجة خشى معها أن ينتهى الأمر بكل المتفرجين إلى سماعها. وارتسمت، رغما عنه، على شفتيه ابتسامة سعيدة متألمة تقريبا، تحركت كأنها قبلة. وبسبب الإظلام البطيء للغسق، لم يلاحظ الشرطيون والأرملة علامة الحياة هذه، لكن الأعين الصافية لعائشة ظلت مثبتة على وجه الشاب، لأنها رأته جميلا. وفجأة، تركت منديلها الأحمر يسقط لكى يخفى هذه الابتسامة. وقالت فى صوت جهير:

ـ أنا لا يناسبنى أن أرقص أمام وجه مسيحى ميت، لذا غطيت فمه، وهو أكثر شيء رأيته وأصابنى بالرعب.

لكنها أكملت رقصها، لكى نشتت انتباه الشرطيين إلى أن يحين وقت الصلاة، الأمر الذى يجبرهم على مغادرة الشاطئ.

وأخيرا، علا صوت فوق مئذنة صائحا بأنه حان وقت التعبد. وتوجه الرجال إلى المسجد الصغير الخشن البدائى، وعادت الفتيات الشابات المتعبات على أعقابهن يجرجرن الخطى إلى القرية.

ومضت عائشة وهى تتلفت إلى الوراء بين الحين والحين. وظلت الأرملة الشاكة وحدها لتراقب الجثة المزيفة.

وفجأة، انتصب ماركو معتدلا، ونزع المسمار من يده اليسرى، وأمسك الأرملة من شعرها الأشقر، ودق مسمارا فى حلقها، ثم، ومع نزعه بيده اليسرى المسمار من يده اليمنى، دق مسمارا فى جبهتها. ثم نزع للتو عمودى الصلب اللذين اخترقا قدميه واستخدمهما فى خرق عينيها. وعند عودة الشرطيين، وجدوا على الشاطئ الجثة المتشنجة لامرأة عجوز، بدلا من جسد البطل العارى.

كانت العاصفة قد هدأت، لكن الزوارق البطيئة لم تتمكن من اصطياد السباح الذى اختفى فى بطن الأمواج. وغنى عن القول أن ماركو أغار ثانية على البلد واختطف الفتاة الجميلة التى أيقظت ابتسامته. ولكنى لم أتأثر لا بمجده ولا بحسن طالعهما، بل تأثرت بهذه التورية اللطيفة، وهذه الابتسامة على شفتى المصلوب، المعبرة عن أن الرغبة هى أرق أنواع التعذيب. انظروا، إن المساء يحل، ويمكننا تقريبا أن نتخيل على شاطئ كوتور مجموعة الشرطيين الذين يعملون على ضوء الجمر المشتعل، والفتاة الشابة التى ترقص والغلام الذى لم يصمد أمام الجمال.

ـ قصة غريبة، قال الأثرى. لكن الرواية التى قدمتها لنا بالطبع حديثة. ولابد أن هناك رواية أخرى لها، أكثر بدائية. لسوف استعلم عن ذلك.

ـ إنك مخطئ، قال المهندس. لقد قصصت عليكم ما حكاه لى الفلاحون بالقرية التى قضيت بها الشتاء الأخير، وأنا أعمل على حفر

نفق لقطار الشرق، ولست أريد التعريض بأبطالكم الإغريق، يا لوقيادس، فهم يسجنون أنفسهم تحت خيمتهم فى سورة من الكآبة، ويصرخون من الألم على أصدقائهم الموتى، ويجرجرون أعداءهم الموتى من سيقانهم حول المدن المغزوة، ولكن، صدقنى، إن الإلياذة تنقصها ابتسامة لأخيل.

حليب الموت

كان الطابور الطويل الداكن والرمادى للسائحين يتمدد بالشارع الكبير بمدينة راغوس، حيث تتأرجح القبعات المزينة، وسترات الأغنياء الموشاة، فى الريح، على واجهات المحلات لتوقد أعين المسافرين الذين يفتشون عن هدايا رخيصة أو عن ألبسة خاصة لحفلات الرقص التنكرية التى تقام على السفينة. كان الجو حارًا بما يشبه الجحيم. وقد أبقت جبال الهرسك الجرداء على راغوس تحت نار المرايا المحرقة. ودلف فيليب ميلد لداخل حانة ألمانية كانت تطن فيها بعض الذبابات الكبيرة فى جو نصف مظلم خانق. كانت شرفة المطعم تطل على نحو مفارق على الأدرياتيكى، الذى يعاود الظهور هنا فى منتصف المدينة، بالموضع الذى لا يتوقعه به أحد، بغير أن تعنى هذه الفرجة المفاجئة الزرقاء شيئًا آخر سوى إضافة لون زائد للبرقشة المتنافرة لميدان السوق. وقد تصاعدت رائحة نتنة من كومة بقايا أسماك نظفتها النوارس البيضاء التى لا يحتمل ضجيجها تقريبًا، ولم تهب أى ريح من ناحية اليم. كان رفيق قمرة فيليب المهندس جول بوتران جالسًا يشرب على منضدة صغيرة من الزنك ذات قائمة واحدة، أسفل مظلة ذات لون فاقع كانت تشبه من بعيد برتقالة طافية على البحر.

ـ احك لى حكاية أخرى، يا صديقى العزيز، قال فيليب وهو يتهاوى بثقله فوق مقعد، فأنا بحاجة إلى كأس من الويسكى ولقصة أمام البحر.. القصة الأجمل والأقل واقعية بقدر الإمكان، والتى تنسينى الأكاذيب الوطنية والمتناقضة لبعض الجرائد التى اشتريتها من على الرصيف. فالإيطاليون يسبون السلاف، والسلاف يسبون اليونانيين، والألمان يسبون الروس، والفرنسيون يسبون ألمانيا، وتقريبًا بالقدر نفسه يسبون إنجلترا. والجميع محقون، كما أتخيل، دعنا نتحدث فى شيء آخر، قل لى ما الذى فعلته أنت بالأمس فى سكوتارى، حيث دفعك فضولك لأن ترى بنفسك لا أدرى أى آلات؟

ـ لا شيء، قال المهندس، ففيما عدا نظرة ألقيتها على سد لم يكتمل، كرست أصفى لحظات يومى فى البحث عن برج. واستمعت لعدد من النسوة العجائز الصربيات يحكين لى قصة برج سكوتارى الذى كنت بحاجة لأن أعاين قرميده المثقب وأستعلم ما إذا كانت به ولا تزال، كما أكد لى البعض، آثار بيضاء، لكن الزمن، والحروب، والفلاحين الذين يعيشون بالقرب منه، الذين عملوا على تدعيم حوائط مزارعهم بأحجاره، هدموه حجرًا بعد حجر، ولم يعد له من ذكر إلا فى الحكايات... وبالمناسبة، يا فيليب، هل أنت محظوظ بالقدر الكافى ليكون عندك ما يسميه البعض بالأم الطيبة؟

ـ يا له من سؤال، قال الشاب الإنجليزى بلا مبالاة، إن أمى جميلة، نحيلة، ومتزينة، وصلبة كزجاج الفترينة. ماذا تريد منى أن أقول لك أكثر؟ فنحن عندما نخرج معًا يعتقد البعض أنى أخوها البكر.

ـ هذا هو الحال. أنت مثلك مثلنا جميعًا. فكلما أفكر أن البلهاء يعتبرون أن حقبتنا خالية من الشعر، كما لو أنها ليس بها سيرياليوها، ونجومها السينمائيون، وطغاتها، أقول، وصدقنى يا فيليب، إن الذى ينقصنا هو الأشياء الحقيقية، فقد صار الحرير صناعيًا، والأغذية المصنعة بشكل كريه الشبيهة بالمواد الغذائية التى كانت توضع مع المومياوات، أما النساء اللواتى كن يستعصين على نحس الشيخوخة فلم يعد لهن وجود. إذ لم نعد نلتقى بعد هذه المخلوقات الغنية بالحليب والدموع والتى نعتد بأن نكون أطفالاً لهن إلا فى البلاد نصف المتحضرة، وإلا قل لى أين سمعت أخيرًا عن شاعر لم يستطع أن يقع فى حب أى امرأة لأنه التقى فى حياة سابقة أنتيجونا؟ إننى من ذلك النوع، وقد جعلتنى بضع دزينات من الأمهات والمعشوقات، من أندروماك إلى غريزيلدا، متطلبًا بشأن هذه العرائس غير القابلة للكسر الموجودة فى الواقع.

"إيزولدا" كعشيقة، وكأخت هى المطلوبة.. نعم، ولكن تلك التى أتمناها كأم هى فتاة صغيرة من أسطورة ألبانية، كانت زوجة مليك صغير من هنا...

"يحكى أن ثلاثة إخوة، عملوا معًا فى تشييد برج، يمكنهم من رصد لصوص الترك من أعلاه، وقد قاموا هم بأنفسهم بهذا العمل سواء لأن الأيدى العاملة كانت نادرة، أو غالية، أو لأن الفلاحين الجيدين لا يثقون إلا بعمل أيديهم، وكانت زوجاتهم تأتينهم بالتناوب بالطعام أثناء عملهم. لكنهم كانوا فى كل مرة ينجحون فيها فى وضع

باقة من أعشاب التمويه فوق السقف، كانت رياح الليل ومعها ساحرات الجبل يقمن بهدم برجهم كما قوض الله برج بابل".

هناك بالتأكيد أسباب لعدم صمود أى برج، وبإمكان المرء أن يتهم عدم مهارة العمال، والتحضير السيئ للأرض، أو عدم كفاية الملاط الذى يمسك بالأحجار. لكن الفلاحين الصرب، والألبان أو البلغار، لا يعترفون فى مثل هذه الكارثة إلا بسبب وحيد، هو أن أى صرح يتم تشييده سينهار إذا لم يقم بناؤوه بحبس امرأة أو رجل فى قاعدته ودفنه حيًا لكى يقوم هيكله العظمى بدعم الصرح الحجرى الثقيل ليوم القيامة، ففى آرتا باليونان، يحكون عن جسر حبست بقاعدته فتاة شابة، ظل طرف خصلة من شعرها بارزًا من شق يتدلى على الماء كنبت أشقر.

وبدأ الأشقاء الثلاثة فى النظر لبعضهم بارتياب وحذر خشية أن يقع ظل أحدهم على حائط لم يكتمل بناؤه، كى لا يحدث، سهوًا، أن يسقط هذا الامتداد الأسود للرجل الذى يمكن أن يكون بمنزلة روحه فى كتلة بناء، لأن هذا الذى يحبس ظله ربما يموت بعد ذلك كبائس يقضى نحبه بفعل الحزن العاطفى.

وبالمساء، كان كل واحد من الاشقاء الثلاثة يجلس لهذا السبب فى أبعد مكان ممكن عن النار، خشية أن يقترب أحد بهدوء من الخلف ويلقى بكيس من القماش على ظله ويحمله نصف مشنوق، كحمامة سوداء تم اصطيادها، وتراخى حماسهم للعمل، واستبد بهم

القلق، وحل التعب، الذى جعل العرق يطفر من جباههم السمراء، وذات يوم جمع أكبر الإخوة حوله أخويه الأصغرين وقال لهما:

ـ يا أخوى الأصغرين، يا أخوى فى الدم، واللبن والعماد، لو أن برجنا ظل هكذا غير مكتمل، فسوف يتسلل الترك من جديد من أطراف هذه البحيرة متخفين وراء الأحراش، وسوف يغتصبون بناتنا البكر، ويحرقون فى حقولنا حبوب خبزنا المقبل، ويصلبون فلاحينا على خيالات المآتة بالبساتين، ليصبحوا هكذا طعامًا للغربان، يا أخوى الأصغرين، لندع القدر يفعل فعله بالشخص الذى سخره الله، لذا علينا أن نمسك، فى الفجر، بأول من يأتى إلى هنا، أى بالمرأة التى تجيء من نسائنا، حاملة لنا الطعام، ونقبرها فى البرج. ولن أطلب منكم سوى صمت ليلة. نعم يا أخوى، فلا يعانق أحد منكم بالبكاء الكثير والتنهد، تلك التى ستكون لديها فرصتان من ثلاث للحياة بعد غروب شمس الغد.

كان سهلاً عليه الحديث بهذا الشكل، فقد كان يمقت فى السر زوجته الشابة وأراد أن يتخلص منها لكى يستبدل بها فتاة يونانية جميلة ذات شعر أصهب. ولم يبد الأخ الثانى اعتراضًا، لأنه اعتمد تمامًا على أنه سوف يحذر زوجته عند عودته بالمساء، أما الوحيد الذى احتج فكان الأخ الأصغر، لأنه اعتاد الوفاء بقسمه. ولكنه تأثر بالشهامة البادية على أخويه الكبيرين، اللذين تخليا عن أعز ما لديهما لصالح العمل المشترك، ووعد بأن يصمت طوال الليلة.

وعادوا إلى المعسكر عند حلول الغسق الذى يعكس أضواءه الذاوية على الحقول. ووصل الأخ الثانى لخيمته فى حالة من الجذل الشرس وأمر زوجته بخشونة أن تعاونه فى خلع نعليه. وعندما قرفصت أمامه، قذف فى وجهها الحذاء صائحًا:

ـ لى ثمانية أيام أرتدى القميص نفسه، وسيأتى يوم الأحد بغير أن أظهر بملابس نظيفة. أيتها الكسولة الملعونة، غدا، من طلعة الفجر، تذهبين إلى البحيرة بسلة غسيلك، وتظلين هناك إلى الليل بين فرشاتك والمدق. ولو تحركت من هناك خطوة واحدة، فسوف تموتين.

ووعدت المرأة الشابة وهى ترتجف بأن تكرس يوم غدها كله للغسيل.

وعاد الشقيق الأكبر لبيته عازمًا على ألا يقول شيئًا لربة بيته التى كانت ترهقه معاشرتها، ولم يعد يلحظ جمالها. لكنه كان مصابًا بضعف خاص، إذ إنه كان يتحدث أثناء الحلم. ولم تنم السيدة الألبانية الموسرة تلك الليلة، فقد راحت تتساءل عن السبب الذى يجعل رجلها يشعر بالندم حيال زواجهما. وفجأة سمعت زوجها يغمغم وهو يشد اللحاف على نفسه:

ـ يا قلبى العزيز، يا قلبى العزيز الصغير، سوف تصبح فى القريب العاجل أرمل.. فيا لها من راحة، عندما تفصل الظلمة بيننا بأحجار البرج المنيعة.

لكن الأخ الأصغر عاد إلى خيمته، عارقًا شاحبًا كمن التقى فى طريقه ملك الموت، وهو يحمل مذراته متوجهًا لحصد الأرواح. وقبل طفله فى مهده المجدول من الصفصاف، واحتضن زوجته الشابة برقة بين ذراعيه، وظلت هى طيلة الليلة تسمعه يبكى وهو يدس رأسه فى صدرها. لكن المرأة الشابة الرزينة لم تسأله عن سبب حزنه العظيم هذا، فلم تكن تريد إجباره على الإسرار بشيء لها، ولم تكن بحاجة لذلك كى تواسيه.

فى اليوم التالى، حمل الإخوة الثلاثة معاولهم ومطارقهم ومضوا باتجاه البرج، وأعدت زوجة الأخ الثانى سلة غسيلها وذهبت وجلست أمام زوجة الأخ الأكبر:

ــ أختاه، قالت، يا أختى العزيزة، هذا اليوم هو يوم دورى فى حمل الطعام للرجال. لكن زوجى أمرنى مهددًا بالموت أن أغسل قمصانه البيضاء، وقد ملأت سلتى بها.

ــ أختاه، يا أختى العزيزة، قالت زوجة الأخ الأكبر، يسعدنى أن أحمل الطعام لرجالنا، لكن شيطانا تسلل الليلة الماضية فى ضرس من أضراسى.. أوه أوه أوه، لولا أننى امرأة صالحة لصرخت من الألم..، ثم صفقت بيديها بغير احتفال ونادت على زوجة الأخ الأصغر:

ــ يا زوجة الأخ الأصغر، قالت، يا عزيزتى الغالية، أذهبى بدلاً منا واحملى الطعام لأزواجنا، لأن الطريق طويل، وأقدامنا

مرهقة، ونحن أقل شبابا وخفة منك، اذهبى يا عزيزتى الصغيرة، وسنملأ سلتك بالأطايب كى يستقبلك أزواجنا بالابتسام، وتكونين الرسول الذى يسد رمقهم.

وتم ملء السلة بأسماك البحيرة المحفوظة بالعسل وبالعنب الكورنثى، والأرز الملفوف فى ورق العنب، وجبن الماعز، والكعك باللوز المملح. وتركت المرأة الشابة، طائعة، طفلها لأيدى زوجتى شقيقى زوجها ومضت على طول الطريق، وحيدة، تحمل حملها على رأسها، وتحمل قدرها على رقبتها كعقد مبارك، لا يراه أحد، كتب الله عليه قدر الموت الذى قدر لها، وحدد موضعه بالسماء.

وعندما لمح الرجال الثلاثة، من بعيد، شخصًا صغيرًا غير مميز الملامح بعد، هرعوا إليه، وكان الكبيران قلقين على نجاح خططهما، أما الأصغر فكان يصلى لله، وصب الأكبر لعناته عند اكتشافه أنها لم تكن سمراءه هى التى جاءت، وشكر الثانى الله بصوت عال لحمايته غسالته. لكن الأصغر ركع على الأرض محيطًا بذراعيه، فخذى المرأة الشابة، وراح يطلب منها الغفران وهو ينوح، عقب ذلك، زحف حتى أقدام أخويه وتضرع لهما طالبًا الرحمة. وأخيرًا، نهض وشرع فى وجهيهما سكينه الذى التمع نصلها فى الشمس، لكن ضربة مطرقة جاءته على عنقه من الخلف فطرحته لاهثًا على حافة الطريق. ووضعت المرأة الشابة سلتها جانبًا، فتبعثر ما بها ليجتمع حوله قطيع من الكلاب الجذلة. وعندما فهمت مغزى ما يدور، رفعت يديها للسماء:

ــ يا أخوى اللذين لم أقصر أبدًا فى حقهما، يا إخوة الرباط العائلى وبركات الكهنة، لا تقتلانى، وبدلاً من ذلك اذهبا لأبى الذى هو زعيم قبيلة بالجبل، وسوف يمنحكما ألف خادم يمكنكما التضحية بهم. لا تقتلانى، إننى أحب الحياة، فلا تقيما بينى وبين محبوبى حاجز الحجر الغليظ.

لكنها صمتت فجأة، فقد أدركت أن زوجها الشاب الممدد على حافة الطريق لم يعد يحرك جفنيه، وأن خصلات شعره السوداء تلوثت بدمه ونثارات مخه. عندئذ تركتهما يقتادانها حتى الكوة المحفورة فى الحائط المستدير للبرج بلا صراخ أو دموع، فقد وفرت دموعها، لأنها قررت الذهاب بنفسها للموت. لكنها حين وضع أحدهما أول قالب حجر أمام قدميها اللتين كانت تضعهما فى صندل أحمر، تذكرت طفلها الذى كانت له عادة عضعضة نعليه ككلب صغير يمرح. وسالت الدموع الساخنة على طول وجنتيها واختلطت بالأسمنت الذى سوته مسجحة الملاط بالحجر.

ــ يا للأسى! يا قدمى الصغيرتين، قالت. لن تحملانى بعد إلى قمة التل، حتى يرانى حبيبى، ولن تشعرا بعد ببرودة الماء الجارى، فلن يغسلكما من الآن سوى الملائكة فى صبيحة البعث.

وارتفع حائط الأحجار فبلغ ركبتيها المغطاتين بتنورة موشاة، فبدت فى عمق الكوة التى وضعت بها، كأنها العذراء مريم منتصبة أمام المذبح.

ـ وداعا، يا ركبتى العزيزتين، قالت المرأة الشابة. فلن تهدهدا بعد الآن طفلى، ولن أجلس بعد تحت الشجرة الجميلة التى تعطى الغذاء والظل بالبستان، فلن أملأ حجرى بفاكهتها الطيبة.

وراح الحائط يرتفع ثانية فأكملت المرأة الشابة:

ـ وداعًا يا يدى الصغيرتين العزيزتين، المتدليتين بطول جسمى، يدى اللتين لن تطهوا الطعام بعد الآن، ولن تغزلا الصوف، ولن تلتفا على خصر حبيبى، وداعًا يا فخذى، وأنت يا بطنى، فلن تعرفا بعد الولادة والحب. وداعًا يا طفلى الصغير الذى قدر لى أن آتى بك للعالم، ويا إخوتى الصغار الذين لم أجد الوقت لأريكم طفلى الوحيد، لسوف تعثرون على فى هذا السجن الذى أقبر فيه، والذى سأظل واقفة به، بلا نعاس، إلى يوم الحساب الأخير.

وارتفعت الأحجار حتى الصدر، عندئذ شملت رعدة أعلى جسد المرأة الشابة، وحلت بعينيها الضارعتين نظرة معادلة لحركة يديها المبسوطتين.

ـ يا أخوى زوجى، قالت، ليس من أجل خاطرى، ولكن من أجل خاطر شقيقكما الميت، فكرا فى طفلى ولا تدعوانه يموت من الجوع. فلا تقيما الحائط على صدرى، يا أخوى، لكى يظل بوسعه الوصول لثديى تحت قميصى المقفول، ولكى تأتيانى به كل يوم، فى الفجر، والظهر والمغرب. فطالما ستظل عندى بعض قطرات الحياة، ستسيل من حلمتى ثديى لترضع الطفل الذى أتيت به للعالم، كى

يشرب روحى، حتى اليوم الذى تجف فيه. وافقا على ذلك، يا أخوى القاسيين، فإن رضيتما بهذا، لن نؤاخذكما، أنا وزوجى العزيز، فى اليوم الذى نلقاكما فيه بين يدى الله.

واستجاب الاخوان الخائفان لتلبية هذه الرغبة الأخيرة وتركا فتحة باتساع حجرين بارتفاع الصدر، عندئذ غمغمت المرأة الشابة:

يا أخوى العزيزين، ضعا أحجاركما أمام فمى، لأن سحنة الموت تخيف الأحياء، ولكن أتركا شقا أمام عينى، حتى أتمكن من رؤية ما إذا كان لبنى يرضع طفلى.

وقاما بعمل ما طلبته، وتركا فتحة أفقية بمستوى عينيها. وعند الغسق، فى الساعة التى تعودت فيها الأم إرضاع الطفل، حملاه على طول الطريق الترابية، المحفوفة بشجيرات صغيرة ترعى فيها الماعز، وحيت المعذبة وصول الرضيع بصيحات الفرح وبالدعوات للأخوين. وسال فيض من الحليب من ثدييها الجامدين الباردين، وعندما انتهى الطفل من غذائه ونعست عيناه وهو مسند رأسه إلى صدرها، راحت تغنى بصوت رق له حائط الحجر. ولما أنفصل رضيعها عن الثدى، أمرت بإعادته إلى المخيم كى ينام، لكنها طيلة الليلة ظلت تردد الأنشودة الرقيقة وارتفع صوتها حتى بلغ النجوم تحت السماء، فحالت أغنية الهدهدة هذه دونها والبكاء. وفى اليوم التالى، توقفت عن الغناء، وصار صوتها واهنا يسأل فقط كيف قضى "فانيا" طفلها ليلته. وفى اليوم الذى تلا صمتت تمامًا، لكنها ظلت

تتنفس، وراح ثدياها اللذان كانا مازالا يمتلئان بأنفاس الحياة يصعدان ويهبطان فى قفصهما. وبعد بضعة أيام، لحق تنفسها بصوتها، لكن ثدييها الجامدين لم يفقدا شيئًا من غزارتهما كنبعين للحليب، وكان الطفل عند نومه فى تجويف صدرها يسمع دقات قلبها. بعد ذلك، ابتعد هذا القلب الذى ينتمى للحياة عن الخفقان، وانطفأت عيناها الذابلتان كنجمتين انعكستا فى صهريج خاو من الماء، ولم يعد بوسع أحد أن يرى عبر الشق سوى برقوقتين زجاجيتين توقفتا عن النظر للسماء. وهاتان البرقوقتان سالتا بدورهما مخلفتين مكانًا لمحجرين غائرين لاح فيهما ظل الموت، لكن الصدر الشاب ظل على حاله، ولمدة عامين، يتدفق منه الحليب بشكل معجز، فى الفجر، والظهر، والمغرب، إلى أن كف الطفل من تلقاء نفسه عن الرضاعة.

عندئذ فحسب، تفتت الحلق الجاف ولم يبق منه على حافة قوالب الحجر سوى حفنة من رماد أبيض. وخلال قرون عدة، ظلت الأمهات المرضعات يحضرن ويتلمسن بأصابعهن شقوق الطوب التى ابيضت بفعل اللبن المعجز، ثم أخذ البرج نفسه فى الاختفاء، وخف ثقل الأقبية عن الهيكل العظمى للمرأة، وأخيرًا، اختفت العظام الهشة نفسها، ولم يعد بالمكان من أثر سوى حضور رجل فرنسى عجوز شوت وجهه حرارة هذا الجو الجحيمى، وراح يثرثر لكل قادم بهذه القصة الجديرة بأن يستلهمها الشعراء والمبكية شأنها شأن حكاية أندروماك.

في هذه اللحظة، اقتربت من المنضدة التي يتكئ عليها الرجلان غجرية ترتدى أسمالاً قذرة فظيعة المنظر. حاملة بين ذراعيها طفلاً، كانت عيناه المريضتان تختفيان تحت ضمادة ممزقة، وانحنت منثنية نصفين، بذلك التواضع المتعجرف الذى لا ينتمى إلا للأصول البائسة والملكية، وكانت تنورتها الصفراء تمسح الأرض. وأبعدها المهندس بخشونة، بغير أن يشغل نفسه بسماع صوتها الذى علا بنبرة الصلاة للرب الذى ابتلاها، ونبهه الإنجليزى كى يتصدق عليها بدينار.

ـ ماذا دهاك، أيها الحالم العجوز؟ قال بتعجل، إن ثدييها وعقدها يتماثلان مع ثدى وعقد بطلتك الألبانية، كما أن الطفل الذى تصحبه أعمى.

ـ أنا أعرف هذه المرأة، أجاب جول بوتران. فقد حكى لى طبيب من راغوس حكايتها. فهى لها أشهر عدة تضع على عينى ابنها لصقات كريهة تحرق بصره، وتستدر به عطف العابرين. وهو مازال بعد يبصر، لكنه سيصير عما قريب أعمى كما تتمنى هى. وعندئذ ستضمن هذه المرأة عيشها مدى الحياة، فالتسول بأعمى مهنة مربحة، وشتان بين أمهات وأمهات.

الحب الأخير للأمير جينغي

ما إن بلغ جنينغى المتألق، الذى أذهل آسيا على الدوام لكونه أكثر الناس فتنة، عامة الخمسين، حتى أدراك أن عليه أن يبدأ الاستعداد للموت. فزوجته الثانية، موراساكى، الأميرة فيوليت، التى أحبها كثيرا رغم خياناته الزوجية التى اثبتت عكس ذلك، كانت قد سبقته إلى واحدة من تلك الفراديس التى يذهب إليها الموتى الذين يثبتون جدارتهم خلال تلك الحياة المتقلبة الصعبة.وتألم جينغى لكونه لم يعد بوسعه أن يتذكر بالضبط ابتسامتها، أو التقطيبة التى كانت تقطبها قبيل أن تبكى. أما زوجته الثالثة، أميرة قصر الغرب. فقد خانته مع قريب شاب، كما خان هو والده أيام شبابه مع إمبراطورة مراهقة. وبتكرار نفس العرض على مسرح العالم، عرف هذه المرة أنه لم يعد له فيه سوى دور العجوز، لذا فضل عن هذه الشخصية شخصية الشبح. وهو ما جعله يوزع أملاكه، ويكافئ خدمه ويستعد للذهاب لقضاء أيامه الأخيرة فى صومعة بناها فى سفح الجبل. ومن ثم اجتاز المدينة للمرة الأخيرة متبوعًا باثنين أو ثلاثة فقط من أصدقائه الأوفياء الذين لازموه من أيام الصبا. وعلى الرغم من الوقت الصباحى المبكر، حشدت النساء وجوههن وهن يتدافعن للنظر إليه من وراء الزجاج الخفيف للنوافذ. ولكن يصحن بصوت عال بأنه

مازال بعد شديد الجمال، الأمر الذى أكد مرة أخرى للأمير أن هذا هو الوقت المناسب للرحيل.

استغرقت الرحلة ثلاثة أيام للوصول إلى الصومعة الواقعة فى قلب الريف البدائى. وكان البيت الصغير مقامًا أسفل شجرة قبقب عمرها مائة عام، ولأن الوقت كان خريفًا،غطت أوراق الشجرة الجميلة سقفه المصنوع من القش بغطاء مذهب . وبدت الحياة فى هذه الوحدة أكثر بساطة وخشونة مما كانت عليه بسنوات النفى الطويلة بالخارج التى عاناها جينغى أثناء شبابه العاصف، وتمكن هذا الرجل المرهف أخيرًا من التمتع بالراحة الفائقة التى كان قوامها التخلى عن كل شيء ولم يمر وقت طويل، حتى أعلنت بداية الشتاء عن نفسها، وتغطت سفوح الجبل بالثلوج لتشبه الثياب القطنية الواسعة التى يرتديها الناس بالشتاء، وخنق ضباب السحب الشمس. ومن الفجر للغسق، بالضوء الشاحب لموقد نار مقتصد، راح جينغى يقرأ المؤلفات الكثيرة وعثر فى تلك الآيات المتزهدة على نكهة حالت دونه وتلك المشاعر المؤثرة العاطفية.

لكنه أدرك بعد ذلك أن بصره قد ضعف، كما لو أن كل الدموع التى نزفها على حبيباته الرقيقات قد أحرقت عينيه، وكان عليه أن يفطن إلى أن الظلمات بالنسبة له بدأت قبل الموت. ومن وقت لآخر، كان يأتيه من العاصمة رسول يرتجف، يطلع على قدميه المنتفختين من التشققات والتعب، ويقدم له باحترام رسائل الاقرباء أو الأصدقاء الذين يتمنون لو يقوم بزيارة ثانية لهذا العالم، قبل أن تبدأ لقاءاته غير المحدودة بالحياة الأخرى.

لكن جينغى كان يخشى ألا يلقى من مضيفيه إلا التعبير عن الأسف أو الاحترام، وهما الشعوران اللذان كان يكرهما، واللذان بسببهما فضل عالم النسيان. فكان يهز رأسه بحزن، كما كان هذا الأمير الذى عرف فيما مضى بذكائه كشاعر وخطاط راح يرد على الرسائل بخطابات فارغة بها أوراق بيضاء. وشيئا فشيئا، تباطأت الاتصالات مع العاصمة، واستمرت الأعياد الموسمية بغير أن يظهر بها الأمير، وهو الذى كان يتصدرها فيما مضى بإشارات مروحته. وراح جينغى الذى ترك بغير حياء لأحزان الوحدة، يفاقم بلا توقف من مرض عينيه، إذا لم يعد لديه بعد خجل من البكاء.

وعرضت عليه اثنتان أو ثلاث من عشيقاته السابقات المجيء لمشاركته معزله المليء بالذكريات. وجاء أكثر هذه الخطابات رقة من سيدة قرية الأزهار الذابلة، وكانت محظية قديمة ذات أصل متوسط وجمال متواضع، وكانت تعمل بأمانة كوصيفة شرف لزوجات جينغى الأخريات، وخلال ثمانية عشر عاما، أحبت الأمير بغير أن تترك نفسها للمكابدة أبدا. وكان هو من وقت لآخر يقوم بزيارات ليلية لها، وهذه اللقاءات، التى كانت نادرة ندرة النجوم فى الليالى الماطرة، كانت كافية لإضاءة الحياة التعسة لسيدة قرية الزهور الذابلة. وبغير أن تقع فى الوهم، لا بجمالها، أو عقلها، أو منشئها، حملت هذه السيدة وحدها لجينغى، عرفانا رقيقا، لأنها لم تجد ببساطة أنه وقع فى غرامها.

ولأن الخطابات ظلت بغير جواب، استأجرت محفة متواضعة وتوجهت إلى كوخ الأمير الوحيد. ودفعت باستحياء الباب المصنوع من الأغصان، وركعت وهى تضحك ضحكة صغيرة مهذبه، لتعتذر عن حضورها.كان ذلك فى الحقبة التى مازال جينغى بها يتعرف على وجوه زائريه، عندما يقتربون منه تماما. واجتاحته نوبة غضب مريرة أمام تلك المرأة التى أيقظت فيه أكثر الذكريات إيلاما من أيامه الميتة، بفعل أن أكمامها كان يفوح منها عطر كانت تستخدمة نساؤه الميتات، لا بفعل حضورها فحسب. وتضرعت إليه أن يبقيها كخادمة فقط. وكان قاسى القلب للمرة الأولى فى حياته، فقد طردها، لكنها كانت تحتفظ بأصدقاء من بين بضع العجائز الذين يقومون بخدمته، وظل هؤلاء يأتون إليها أحيانا بأخباره. وعلى نحو وحشى من جانبها هى الأخرى للمرة الأولى فى حياتها، راحت تتابع من بعيد تطورات عماه، كامرأة تتعجل اللحاق بحبيبها بانتظار حلول المساء.

وحين عرفت أنه صار أعمى تقريبا، خلعت عنها ملابس المدينة وارتدات ثوبا قصيرا غليظا من النوع الذى ترتديه الفلاحات الشابات، وضفرت شعرها على طريقة فتيات الحقول، وحملت كمية من المنسوجات والخزف كالتى تباع بموالد القرى. ومقنعة على هذا النحو، توجهت إلى المكان الذى يحيا به المنفى بارادته الساكن بصحبة أيائل وطواويس الغابة، وسارت المرحلة الأخيرة من المسافة على قدميها، كى يعينها الطين والإرهاق على لعب دورها. كانت أمطار الربيع الخفيفة تتساقط من السماء على الأرض المبتلة، مغرقة

آخر التماعات الغسق، وكانت تلك هى الساعة التى يرتدى جينغى فيها ثوب الكاهن الضيق، ويخرج للتمشى على طول الممر الذى أزاح منه خدمه الكهول كل الأحجار الصغيرة، ليقوه شر التعثر. وكان وجهه الذى خلا من التعبير الجاف، الجامد بفعل فقد النظر ونهايات العور، يشبه مرآة من الرصاص كانت تعكس جمالا فيما مضى، فلم تجد سيدة قرية الزهور الذابلة حاجة للتظاهر كى تشرع فى البكاء.

وهزت هذه الشهقات النسائية قلب جينغى، الذى توجه ببطء للناحية التى تأتى منها الدموع.

ـ من أنت، أيتها المرأة؟ قال بقلق.

ـ أنا أوكيفون، ابنه المزارع سو- هى، قالت مؤكدة على نطقها بلهجة الريف. كنت ذاهبة للمدينة مع أمى، كى أشترى أقمشة وأوانى لأننى سأتزوج مطلع الشهر القمرى المقبل. فضللت طريقى بممرات الجبل، وأنا أبكى، لأننى أخاف الخنازير البرية، والشياطين، وشهوات الرجال، وأشباح الموتى.

ـ أنت مبتلة، أيتها الشابة، قال الأمير وهو يضع يده على كتفها.

كانت بالفعل متبلة تماما.وجعلها إحساسها بتلك اليد التى تعرفها تماما تختلج من قمة شعرها الأخمص قدميها العاريتين، لكن جينغى اعتقد أنها ترتعش من البرد.

ـ تعالى إلى كوخى، تابع الأمير بلهجة صارمة، يمكنك أن تتجففى أمام مدفأتى، ولو أنها تحوى رمادا أكثر مما بها من فحم.

وتبعته السيدة، وهى تحرص على أن تقلد السلوكيات الفجة لفلاحة من الريف وقرفص الاثنان أمام النار شبه الخامدة. ومد جينغى يديه صوب الحرارة، ولم تمد السيدة أصابعها، إذ كانت أرق من أن تكون أصابع فتاة من فتيات الحقول.

ـ إننى ضرير، تنهد جينغى للخطة. وبوسعك بغير قلق أن تخلعى ملابسك المبللة، أيتها الشابة، وتتدفئى عارية أمام النار.

وخلعت السيدة بنعومة ثوب الفلاحة الذى كانت ترتديه. واضاءت النار جسدها النحيل الذى بدا كأنه منحوت من الكهرمان الشاحب. وفجأة، غمغم جينغى:

- لقد خدعتك أيتها الشابة، فأنا فى الحقيقة لست أعمى تماما. إذا ألمحك بعض الشيء خلف ضباب ربما كان هو هالة جمالك، دعينى اضع يدى على ذراعك، الذى يرتجف مازال.

وهكذا أصبحت سيدة قرية الأزهار الذابلة من جديد عشيقة للأمير جينغى، الذى أحبته بتواضع ثمانية عشر عاما. ولم تنس أن تقلد دموع وحياء فتاة صغيرة تحب لأول مرة. وأعانها على ذلك كون جسدها مازال شابا على نحو مدهش، وشدة ضعف بصر الأمير الذى جعله لا يميز الشعرات الرمادية برأسها.

وعندما شارف عناقهما على الانتهاء، ركعت السيدة أمام الأمير وقالت:

ـ لقد خدعتك، أيها الأمير. فأنا بالفعل أوفكين ابنة المزارع سو-هى، لكننى لم أضل بالجبل، فمجد الأمير جينغى قد بلغ صيته القرية، لذا جئت بملء إرادتى، كى اكتشف الحب بين ذراعيك.

ونهض جنيغى مترنحا، كصنوبرة تهتز تحت وقع الشتاء والريح. وصاح بصوت مبحوح:

ـ ما اتعسك، يا من جئت لتذكرينى بأسوأ أعدائى، فجمال الأمير بعيونه الحية هو الصورة التى تطرد من عينى النوم كل ليلة.. اذهبى.. ومضت سيدة قرية الزهور الذابلة، نادمة على الغلطة التى ارتكبتها.

فى الأسابيع التى تلت، ظل جينغى وحيدا، يتعذب، فقد اصابه بالإحباط تبينه أنه مازال معلقًا فى فخاخ هذا العالم، وأنه ليس مستعدًا للحرمانات ولتبدلات الحياة الأخرى. وقد أيقظت فيه زيارة ابنة المزارع سو ـ هى الشعور بنكهة المخلوقات ذات الأكف الصغيرة، والصدور المتحركة المخروطية، والضحكات المثيرة اللينة. فمنذ أن صار اعمى، أصبح حس اللمس، وسيلته الوحيدة للتواصل مع جمالى العالم، والمناظر الطبيعية التى كانت تحيطه لم تعد بعد تمنحه عزاء،

لان خرير الجدول أكثر رتابة من صوت امرأة وانحناءات التلال ونبالات أضواء السحب جعلت ليتذوق جمالها الذين يبصرون، فهى تحلق بعيدا عنا بما يجعلنا غير قادرين على لمسها.

بعد شهرين من ذلك قامت سيدة قرية الزهور الذابلة بمحاولة ثانية. هذه المرة لبست وتعطرت بعناية، لكنها حرصت على أن يكون فى تفصيل ثيابها شيء من الضيق والقصر يبرز رشاقتها وعلى أن يكون العطر الهادى والعادى الذى تضعه موحيا بنقص الخيال لدى امرأة شابة من قبيلة من أشراف الريف. لكنها لم تر البلاط أبدا.

لهذه المناسبة، أستأجرت حمالين وكرسيًا ضخما، لكنه يفتقر إلى كمال صناعة المدينة. وأعدت عدتها بحيث لا تصل إلى محيط كوخ جينغى إلا عند هبوط الليل. كان الصيف قد حل مبكرا بالجبل. وكان جينغى جالسا تحت شجرة القبقب، يستمع إلى صوت الجداجد. واقتربت منه وهى تخفى نصف وجهها خلف مروحة وتغمغم فى إرتباك:

ـــ إننى شوجو، زوجة سوكازو، النبيل من الدرجة السابعة بريف ياماتو، وقد سافرت للحج بمعبد إيسى، لكن أحد الحمالين معى التوت ساقه، وليس بوسعى مواصلة الطريق قبل الفجر، دلنى على كوخ يمكننى أن آوى إليه وأريح به خدمى بغير خشية من الشائعات.

ـــ أين يمكن لامراة شابه أن تنأى بنفسها عن الشائعات إلا فى بيت رجل عجوز أعمى؟ قال الامير بمرارة. إن كوخى اصغر من

أن يوؤى خدمك الذين بوسعهم المبيت تحت هذه الشجرة، ولكنى ساتخلى لك عن المرتبة الوحيدة بصومعتى.

نهض يتحسس لكى يدلها على الطريق. ولم يرفع بصره نحوها مرة واحدة، فأدركت انه صار أعمى تماما.

وعندما تمددت على مرتبة الأوراق الجافة، عاد جينغى لحالته الحزينة عند عتبة الكوخ. كان تعسا فلم يكن يعرف حتى ما إذا كانت هذه المرأة جميلة أم لا.

كانت الليلة دافئة وصافية. وقد سطع القمر بضوئه على الوجه المرفوع للضرير، بما جعله يبدو كانه وجه منحوت من حجر اليشب الأبيض، وبعد لحظة طويلة، تركت المرأة مضجعها الحراجى وجاءت بدورها لتجلس على العتبة، وقالت وهى تتنهد:

ـ إن الليلة جميلة، وليست بى رغبة فى النوم، اسمح لى بأن أغنى بعض الأغانى التى يمتلئ بها صدرى.

وبغير أن تنتظر الجواب، راحت تغنى اغنية عاطفية تعلق بها الأمير عند سماعه لها عدة مرات من شفتى زوجة الأثيرة، الأميرة فيوليت. واضطرب جينغى، واقترب.

ـ من اين اتيت، أيتها الشابة التى تعرف الاغانى التى عشقتها فى صباى؟ ايتها القيثارة التى تعزف بطريقة الزمن الماضى، دعينى أضع يدى على أوتارك. وراح يتحسس شعرها. وبعد لحظة، سأل:

ـ مع الاسف أليس زوجك أكثر جمالا وشبابا منى، أيتها الشابة من ريف ياماتو؟

ـ إن زوجى أقل جمالا، ويبدو أقل شبابا، أجابت على الفور سيدة قرية الزهور الذابلة.

وهكذا، صارت السيدة تحت قناع جديد عشيقة للأمير جينغى، الذى كانت تابعة لديه بالماضى. وعند حلول الصباح، قامت بتحضير عصيدة ساخنة، فقال لها الأمير جينغى:

ـ إنك ماهرة ورقيقة، أيتها الشابة، ولا أعتقد أن الامير جينغى نفسه، الذى كان سعيدا للغاية فى الحب، كانت لديه عشيقة اكثر رقة منك.

ـ أنا لم أسمع أبدا بالأمير جينغى، قالت السيدة وهى تهز رأسها.

ـ ماذا؟ صاح جينغى بمرارة. أبهذه السرعة تم نسيانه؟

وظل مكتئبا طوال اليوم. وفهمت السيدة عندئذ أنها اخطات للمرة الثانية، لكن جينغى لم يتحدث عن طردها، وبدا سعيدا بسماع حفيف ثوبها الحريرى بالعشب.

وحل الخريف، محيلا اشجار الجبل إلى ما يشبه الجنيات المرتدية الوانا قرمزية وذهبية، والتى تستعد للموت عند دخول البرد. وراحت السيدة تصف لجينغى ألوانها السمراء الرمادية، والسمراء

الذهبية، والسمراء البنفسجية، وهى تحرص على ألا تستخدم التلميحات إلا على سبيل المصادفة، وعلى ان تتجنب اظهارها انها تساعده.

وراحت تفتن جينغى باستمرار بإبداعها عقود الزهور الجميلة، والأطباق الترفة لفرط بساطتها، ولغة الحديث الجديدة المتكيفة لمخاطبة المسنين من أصحاب الحالات المؤثرة والجريحة. فصارت تنشر نفس اللطائف التى كانت تنشرها فى الفيللا التى خصصت لها فيما مضى كمحظية خامسة عندما كان جينغى يزورها بالماضى، ولكنه لاستغراقه فى علاقاته العاطفية الأخرى لم يلحظها.

فى نهاية الخريف، ارتفعت الحرارة فوق المستنقعات، وتكاثرت الحشرات بالهواء المعدى، وصار كل شهيق أشبه بجرعة ماء من نبع مسموم، وسقط جينغى مريضا ورقد بسرير مجدول من الأوراق الميتة معتقدا أنه لن يقوم بعدها، كان يشعر بالخجل أمام السيدة لضعفة وللتصرفات المخجلة التى أجبره عليها المرض، لكن هذا الرجل الذى قضى عمره كله فى البحث بكل تجربة عما بها فى آن معا من تفرد وحزن لم يعد بوسعه إلا أن يتذوق ما أضافته له هذه الصداقة الجديدة والبائسة فيما بين كائنين من عذوبة الحب.

ذات صباح عندما كانت السيدة تدلك له ساقية، نهض جينغى على مرفقيه وتلمس يديها، وغمغم:

– أيتها الشابة التى تعتنى بمن سيموت، لقد غششتك. فأنا الأمير جينغى.

ـ منذ أن جئت صوبك، لم أكن إلا ريفية جاهلة، قالت السيدة، ولم أكن أعرف من هو الأمير جينغى. الآن صرت أعرف أنه كان أجمل الرجال وأكثرهم جاذبية، لكنك لست بحاجة لتكون الأمير جينغى كى تجد الحب.

وشكرها جينغى بابتسامة، وفى اللحظة التى بدأت فيها عيناه فى الذبول والصمت، تحرك النظر،كما يقال، على شفتيه.

ـ لسوف أموت، قال بأسى.ولست أشفق من القدر الذى أشترك فيه مع الزهور، والحشرات، والنجوم، فبالعالم الذى يمر فيه كل شيء كأنه خاطرة، ليس لنا أن نطلب الدوام للأبد. ولست أشفق من أن الأشياء والكائنات والقلوب عرضة للهلاك، لأن جانبا من جمالها قد صيغ من هذا القدر. ما يكدرنى، هو أنها وحيدة. فيما مضى، كان يقين العثور فى كل ثانية من حياتى على كشف فريد لا يتكرر يشكل بوضوح قوام ملذاتى الخفيفة، والآن أموت، مجللا بالخجل، كمحظوظ حضر وحيدا حفلا مهيبا لا يتكرر سوى مرة واحدة. أيتها الأشياء، لم يعد هناك من شاهد عليك سوى أعمى يموت.. لسوف تزهر نسوة أخريات، باسمات أيضا كاللواتى أحببتهن، لكن ابتساماتهن ستكون مختلفة، وسوف تزول شامات الجمال بوجناتهن المطيبة التى توقد عاطفتى. وسوف يحطمن قلوبا أخرى تحت وطأة الهوى، لكن دموع هذه القلوب لن تكون دموعنا. وسوف تستمر الأيدى المرتجفة بالرغبة فى التلاقى تحت أشجار

اللوز المزهرة، لكن نفس الأمطار المنهمرة من التويجات لن تسقط أبدا مرتين على نفس السعادة البشرية. آه، أشعر بنفسي كأنني رجل اجتاحه الفيضان، ويتشبث بالبحث عن ركن يابس من الأرض يودع فيه بعض الخطابات التى اصفرت وبعض المراوح المنطفئة الألوان.. فما الذى سوف يحدث لك، عندما لا تجديننى ثانية هنا لكى أحن إليك، يا ذكرى الأميرة الزرقاء، زوجتى الأولى، وتجدين الحب الذى لم أنتبه إليه إلا غداة موتها؟ وأنت أيتها الذكرى المؤسية لسيدة مشتل النباتات المتسلقة، التى قضت بين ذراعى، عندما صرعتها أميرة غيور لتنفرد بحبى؟ وأنت أيتها الذكريات المختالة لزوجة أبى الجميلة وزوجتى الصغيرة السن، اللتين علمتانى، كل بدورها، ما يعانيه المرء عندما يخون أو عندما يكون ضحية للخيانة؟ وأنت، أيتها الذكرى النافذة لسيدة جداجد الحديقة، التى توارت حياء بما يجعلنى أتعزى بزيارة أخيها الصغير، الذى عكس وجهه الطفولى بعض ملامح ابتسامتها النسائية الخجول؟ وانت، أيتها الذكرى العزيزة لسيدة الليالى الطويلة، التى كانت شديدة الرقة، والتى ارتضت أن تنزل فى المرتبة الثالثة ببيتى وقلبى؟ وأنت، أيتها الذكرى المسكينة الصغيرة لابنة المزارع سو- هى، التى لم تعشق فى إلا ماضى؟ وأنت خاصة، أنت، أيتها الذكرى العذبة للصغيرة شوجو التى تدلك الآن ساقى، والتى ليس لديها وقت لتصبح ذكرى؟ شوجو، التى كان على ان التقى بها فى وقت أبكر من عمرى، ولكن من الطبيعى أن تحتفظ لنا الحياة

بفاكهة للخريف الأخير. وأصابه الدوار من فرط التعاسة، وترك رأسه يسقط على الوسادة الجافة. فانحنت عليه سيدة قرية الأزهار الذابلة وغمغمت وهى ترتجف كلها:

ـ ألم تكن لديك فى القصر امرأة أخرى، لم تذكر اسمها؟ ألم تكن رقيقة؟ ألم تدع سيدة الزهور الذابلة؟ حاول أن تتذكر.

لكن ملامح الأمير جينغى كانت قد تحولت بالفعل إلى تلك السكينة التى هى حكر على الموتى. ومحت نهاية كل ملمح للألم من على آثار الاحتقان أو المرارة، وبدا كأنه عاد ثانية لسن الثامنة عشرة. وألقت سيدة قرية الزهور الذابلة بنفسها على الأرض وهى تصرخ بالرغم من تحفظها، واغرقت دموعها المالحة خديها كأنه مطر الرعد، وتشعث شعرها المعقوص كزغب الحرير. فالاسم الوحيد الذى نسيه الأمير جينغى، كان هو على وجه التحديد اسمها هى.

الرجل الذى عشق حوريات الماء

كان واقفا، بقدمين عاريتين، فى التراب، والحرارة وعفونة الميناء، تحت الخيمة الهزيلة لمقهى صغير، حيث استرخى بعض الزبائن على المقاعد بأمل لا طائل من ورائه فى الاحتماء من الشمس.

كان بنطلونه الأصهب ينزل بالكاد إلى العقبين، والعظمتين البارزتين بقدمه، ونتوء الكعب، والشعرات الخشنة الخادشة بالأصابع المرنة المتلمسة التى تنتمى لهذا الجذر من الأقدام الذكية، المتعودة على التفاعل مع الهواء والأرض الخشنة من غلظة الأحجار التى لم تعد تعطى الإنسان المرتدى الملابس إلا القليل من رفاهية الإنسان العارى. كانت قدماه رشيقتين، على العكس تماما من الدعائم المعوجة والمثبتة بإحكام بالنعال جهة الخارج.. وكانت الزرقة الخفيفة لقميصه تتناغم مع درجة لون السماء الباهتة بسبب ضوء الصيف، كما كان كتفاه بعظمتيهما يبرزان من تمزقات النسيج كأنهما صخرتان ناحلتان وقد تدلت أذناه الطويلتان قليلا بما جعلهما تؤطران رأسه بميل منحرف على غرار مقبضى الجرة، وبدا على وجهه الشاحب المنبسط الأسارير أثر لا ينافس لجمال ظاهر، كأنه تمثال أثرى مهشم ناتئ تحت أرض قاحلة. كانت عيناه الشبيهتان بعينى حيوان مريض تختفيان بغير ارتياب خلف هدبين طويلين كأهداب البغال، وهو يمد

يده اليمنى المفرودة باستمرار، بالطريقة المتصلبة المزعجة للتماثيل العتيقة التى تبدو كما لو أنها تطلب من زوار المتاحف التصدق بالإعجاب، بينما تخرج تأوهات الشكوى غير المفهومة من فمها الكبير المنفرج عن أسنان لامعة.

ـ أهو أصم أبكم؟

ـ لا ليس أصم.

وتحين جان ديمترياديس، صاحب مصانع الصابون الكبيرة بالجزيرة لحظة عدم انتباه، كانت فيها نظرة الأبله قد تشتتت صوب البحر، لكى يسقط دراخمة على عتبة البلاط الناعمة. ولم تغب الرنة الخفيفة المكتومة بفعل طبقة الرمل على البلاط عن انتباه المتسول، الذى التقط القطعة المعدنية الصغيرة البيضاء بنهم ثم عاد من فوره إلى حالته المحدقة المتأوهة، كأنه طائر نورس على حافة رصيف الميناء.

- ليس أصما، كرر جان ديمترياديس القول وهو يضع أمامه كأسه نصف الممتلئة بسائل كدر أسود. لقد فقد النطق والعقل فى ظروف حدث أننى حسدته عليها، أنا الرجل العاقل، الغنى، إذ لا أجد فى غالب الأحوال أمامى إلا الملل والجدب. فهذا البنايوتى (وكان يطلق عليه هذا الاسم) صار أبكم فى الثامنة عشرة من عمره لأنه التقى بحوريات البحر.

وارتسمت ابتسامة خجول على شفتى بنايوتى، عندما سمع نطق اسمه. ولم يبد عليه أنه فهم معنى كلام هذا الرجل المهم الذى يدين له بالعرفان لحمايته، ولكن نغمة الصوت، لا الكلمات نفسها، هى التى أثرت فيه. كان مغتبطا لإدراكه أن الأمر يخصه، وأنه ربما ترتب على ذلك أمل فى الحصول على صدقة جديدة، ومد يده خفية، بحركة حذرة لكلب يتحسس بقائمته ركبة صاحبه، كى لا ينسى أن يعطيه طعاما.

ـ إنه ابن أحد الفلاحين الموسرين جدا بقريتى، تابع جان ديمترياديس، وهؤلاء الناس أثرياء بالفعل بشكل إستثنائى. فلدى أهله حقول لا يدرون ماذا يفعلون بها، ومنزل جميل مبنى بالحجر المصقول، وبستان به أنواع شتى من الفاكهة، وحديقة للخضر، وساعة ميقاتية بالمطبخ، ومصباح يضيء أمام حائط الأيقونات. خلاصة الأمر، لديهم كل ما يلزم. ويمكن القول عن بنايوتى ما يندر قوله عن شاب يونانى، فلديه رزق وفير لمدى الحياة. كما يمكن القول إن طريقه فى الحياة كان ممهدا تماما، وهو طريق يونانى، مترب، مليء بالزلط ورتيب، ولكن به هنا أو هناك الجنادب التى تنشد ومحطات الاستراحة التى ليست كريهة للغاية أمام أبواب الحانات. فقد كان يشرف على عمل النسوة العجائز فى جنى ثمار الزيتون، ويراقب تعبئة صناديق العنب ويزنها ببالات الصوف، وأثناء الحوارات مع مشترى الدخان، كان يساند أباه على نحو خفى بالبصق تقززا عند كل عرض ينقص عن الثمن المطلوب، وكان

خاطبا لابنة الطبيب البيطرى، وهى فتاة مهذبة كانت تعمل بمصنعى، ولأنه كان شديد الوسامة، كانت لديه صديقات من الفتيات الريفيات. وتخيلوا حسن طالع بنايوتى، فقد كان يتمتع بحب الجميلات، واستحسان الرجال، وبساعة فضية، وكل يومين أو ثلاثة بقميص أبيض كوته له أمه على نحو رائع، وباللحم والأرز فى الغداء وبكأس من الشراب المعطر قبل وجبة المساء. لكن حسن الطالع هش بطبعه، فعندما لا يدمره البشر أو الظروف، تهدده الأشباح.

أنت لا تعرفين ربما أن جزيرتنا تعج بحضور غامض. وأشباحنا لا تشبه أشباحكم فى الشمال، التى لا تخرج إلا فى منتصف الليل وتقبع فى النهار بالمقابر. فأشباحنا تأبى أن تتغطى بالملاءات البيضاء، كما أن هياكلها العظمية تكتسى باللحم. ولكنها ربما كانت أخطر من أرواح الموتى عندكم، فهذه تم تعميدها على الأقل، وعرفت الحياة، وعرفت معنى الألم. فحوريات البحر بريفنا بريئة وشريرة، شأنها فى ذلك شأن الطبيعة التى تحمى الإنسان تارة وتارة تدمره. وتتشابه حورياتنا كثيرا مع جنياتكم كما هو الحال فى الصور التى صورتموها نقلا عن باراكسيتل. لكن شعبنا يؤمن بقوتها، فهى موجودة مثلها مثل الأرض، والماء والشمس الخطرة، ويتجسد فيها ضوء الصيف كأنه جلدها، وهو ما يجعل نظرتها تنشر الدوار والغيبوبة. وهى لا تخرج إلا ساعة الظهيرة المأساوية، لتبدو وكأنها غائصة فى غموض الضوء الساطع. فإذا أقام الفلاحون المتاريس أمام بيوتهم قبل أن يتمددوا لغفوة الظهيرة، فهذا ليس للاحتماء من

الشمس، بل للاحتماء منها: فهذه الجنيات القاتلة جميلة بالفعل، وعارية، ومثيرة، وتثير الشؤم كالماء الذى يحمل لشاربه بذور الحرارة، وهؤلاء الذين رأوها راحوا يذوون شيئا فشيئا من السقم والشهوة، ومن واتتهم الجرأة على الاقتراب منها أصابهم الخرس مدى الحياة، كى لا يفضحوا أسرار حبهم.

وهكذا، ففى صباح يوم من أيام يوليو، نكص خروفان من خراف والد بنايوتى على أعقابهما عن خط السير، وانتشرت العدوى بسرعة لأكبر رءوس القطيع، وتحول مربع الأرض الطينية أمام المنزل سريعا إلى حوش للبهائم المنحرفة عن طريقها. وذهب بنايوتى وحده، فى شدة القيظ، وشدة الشمس، للبحث عن البيطرى الذى يسكن على الناحية الأخرى من قمة سانت إيلى، بقرية صغيرة تتكور على شاطئ البحر. ولم يعد حتى ساعة الغسق. وتحول قلق والد بنايوتى على خرافه إلى قلق على ابنه، وراح يذرع بلا جدوى كل الريف والوديان المجاورة، وظلت نساء العائلة طيلة الليل يصلين بكنيسة القرية التى لم تكن سوى مخزن للحصيد مضاء بدستتين من الشموع، ويبدو كأنه المكان الذى سوف تدخله العذراء لتلد المسيح للعالم.

وفى مساء اليوم التالى، فى ساعة الراحة التى يجتمع فيها الرجال بميدان القرية أمام قدح صغير من القهوة، وكأس ماء، أو ملعقة من المربى، شوهد بنايوتى يعود شخصا آخر، عليه سيماء التبدل كإنسان خبر الموت. كانت عيناه تبرقان، وقد التهم بياضهما

وحدقتاهما القزحيتان، فلم يكن لشهرين من الملاريا أن يثيرا اصفرارهما أكثر من ذلك، وكانت ابتسامة مقززة بعض الشيء تمسخ شفتيه اللتين خرستا عن الكلام . ولم يكن مع ذلك قد أصابه الخرس تماما. فقد كانت أجزاء من كلمات مقطعة تخرج من فمه كأنها الغرغرة الأخيرة لنبع يجف:

ـ حوريات البحر.. السيدات.. حوريات البحر.. جميلات.. رائعات.. شقراء.. شعر أشقر.

كانت تلك هى الكلمات الوحيدة التى أمكن انتزاعها منه. ولعدة مرات، فى الأيام التى تلت، ظل الناس يسمعونه يعيد بشكل أكثر خفوتا على نفسه:

"شعر أشقر.. أشقر"، كما لو أنه يتحسس حريرا. وكفت عيناه عن اللمعان، لكن نظرته أصبحت مبهمة ومثبتة على أشياء غريبة، فقد كان يحدق فى الشمس بغير أن يطرف بعينه، ولعله وجد متعة فى تمييز هذا الشيء ذى الشقرة الباهرة.

كنت بالقرية فى الأسابيع الأولى لهذيانه، ولم يكن يعانى من ارتفاع فى الحرارة، ولم يبد عليه أى عرض لضربة شمس أو نوبة حمى. واصطحبه والداه لكى يرقياه ضد الأرواح الشريرة فى دير شهير قريب، وتركهما يفعلان ذلك بوداعة خروف مريض، ولكن لم يكن فى استطاعة شعائر الكنيسة، ولا أدخنة البخور، ولا طقوس نسوة القرية العجائز طرد الحوريات المجنونات المصبوغات بلون

الشمس من دمه. ومرت الأيام الأولى التى قضاها بحالته هذه فى الذهاب والمجيء بلا توقف، فقد كان يعود بلا كلل إلى المكان الذى حدث به الظهور، وكان به نبع يأتيه الصيادون أحيانا للتزود من مائه العذب، وواد صغير محفور، وحقل أشجار تين به ممر يهبط باتجاه البحر. واعتقد الناس أنهم اكتشفوا فى العشب الناحل آثارا خفيفة لأقدام نسائية، وأماكن وطئت تحت ثقل أجساد. ويمكن تخيل المشهد، فمنافذ الشمس فى ظل أشجار التين، ليست ظلالا، وإنما أشكال أكثر اخضرارا ونعومة من الضوء، والشاب الريفى الذى نبهته أصوات ضحكات وصيحات نسائية أشبه بصياد يتسمع لخفق الأجنحة، والفتيات المتخيلات يرفعن أذرعهن البيضاء التى يستقبل زغبها الشمس، ويتحول ظل فتاة منهن إلى بطن عارية، ليقبلهن بنايوتى بالتهام خصلات شعره مما أعطاه الانطباع بأنه يمضغ عسلا، ولأنه لا يوجد حب بغير أن يفتتن القلب، فقلما توجد شهوة حقيقية بغير انبهار بالجمال. والباقى كله ليس على الأرجح سوى أمور عملية آلية، كالشرب عند العطش والأكل عند الجوع.

لقد قادت حوريات الماء الشاب الأخرق إلى عالم أنثوى مختلف عن عالم فتيات الجزيرة اللاتى لسن سوى إناث بهائم، فقد قدمن له عالم المجهول، ونهاية المعجزة، والمكر المشتعل لحسن الحظ. ويمكننا تصور أنه لم يكف عن لقائهن، فى ساعات الحر حيث تتنزه شياطين الظهيرة هذه بحثا عن الحب، ومن الواضح أنه نسى كل شيء حتى وجه خطيبته، وها هو يدور حول نفسه كقرد أصابه

القرف، فهو يبصق أثناء مرور زوجة الكاهن، التي بكت لمدة شهرين قبل أن تتمكن من مواساة نفسها. لقد خبلته الحوريات كي يجعلنه يتفاعل أكثر في لعبتهن، كأنه نوع من الحيوان البريء. فلم يعد يعمل، ولم يعد يلقي بالا بعد للأيام أو الشهور، ثم صار شحاذا، من النوع الذي يأكل باستمرار عندما يجوع. راح يشرد في البلد، متجنبا قدر المستطاع الطرق الكبيرة، فهو يتوغل في الحقول وغابات الصنوبر ووديان التلال المهجورة، وقيل إن زهرة ياسمين تنمو على حائط من الحجر الصلد، أو زلطة بيضاء أسفل شجرة سرو كانت هي الرسائل التي تحدد الساعة والمكان للموعد المقبل له مع الجنيات. ويتوقع له الفلاحون ألا يشيخ أبدا، ككل من شاء حظه أن يلحق به مس، فهو سوف ينتهي بغير أن يعرف أحد سواء في سن الثامنة عشرة أو سن الأربعين. لكن ساقيه ستظلان ترتجفان، وسيذهب عقله بغير رجعة، ولن يولد الكلام ثانية على شفتيه. وكان هوميروس يعرف أن هؤلاء الذين يضاجعون العرائس الأسطورية الذهبية اللون، لا يعود بوسعهم أن يستخدموا ذكاءهم أو قوتهم، لكنني أحسد بنايوتي. لقد خرج من عالم الأفعال ليدخل في عالم الإيهام، وقد حدث لي أن فكرت أن الإيهام ربما كان هو الشكل الذي يجلب الحقائق الأكثر خفاء أمام أعين الإنسان من العامة.

ولكن في النهاية، يا جان، قالت السيدة ديمترياديس في سخط، أنت لا تعتقد بأن بنايوتي شاهد حوريات الماء بالفعل.

ولم يجب ديمترياديس، الذي كان مشغولا تماما بالنهوض قليلا

من على كرسيه ليرد التحية المتعجرفة لثلاث فتيات أجنبيات مررن. هؤلاء الشابات الأمريكيات كن يرتدين ملابس من نسيج أبيض ويسرن بخطوات ناعمة على الرصيف الغارق فى الشمس، يتبعهن حمال انحنى تحت ثقل المواد التموينية التى اشترينها من السوق، كانت إحداهن تسير حاسرة الرأس، مثبتة غصنا من الريحان فى خصلات شعرها الأشقر، وكانت الثانية تضع قبعة ضخمة من القش، أما الثالثة فقد غطت شعرها كفلاحة بلفاع من القطن، وقد وضعت على عينيها نظارة شمسية بزجاج أسود لحمايتهما كأنها قناع. هؤلاء النسوة الثلاث الشابات كن قد استقررن فى الجزيرة حيث اشترين منزلا بعيدا عن الطرق الكبيرة، وكن ثلاثتهن يصطدن السمك ليلا بقاربهن الخاص ويصطدن السمان فى الخريف، ولم يصادقهن أحد كما كن يخدمن أنفسهن، خوفا من إقحام خادمة بخصوصيات وجودهن، فكن منعزلات على نحو وحشى لتجنب الوشاية، ربما مفضلات عنها النميمة. وحاولت عبثا استكناه النظرة التى ألقاها بنايوتى على العرائس الأسطورية الثلاث، لكن عينيه الزائغتين ظلتا مبهمتين لا التماع فيهما. وكان باديا أنه لم يتعرف على الحوريات المرتديات ملابس النساء. وفجأة ركع بحركة مرنة كحيوان، ليلتقط دراخمة جديدة سقطت من أحد جيوبنا، وتمكنت أن ألمح فى الوبر الخشن لسترته، شيئا معلقا بكتف من كتفيه، ومشبوكا بحمالاته، هو الشيء الذى كان بوسعه أن يزود قناعتى بدليل لا وزن له، أى خيط حريرى، خيط رفيع، الخيط الضال لشعرة شقراء.

كنيسة السيدة العذراء راعية السنونو

كان الراهب ثيرابيون فى شبابه أكثر تلامذة أثناسيوس العظيم إخلاصا، وكان فظا، قاسيا، لا يتعامل برقة أبدا سوى مع المخلوقات التى لا يداخله الشك فى تخلصها من الشياطين. ففى مصر، قام بإيقاظ المومياوات وتنصيرها، وفى بيزنطة، تلقى اعترافات الأباطرة، ثم جاء إلى اليونان بسبب رؤيا أتته فى منامه، جعلته يعزم على تخليص هذه الأرض الخاضعة بعد لبقايا الوثنية من الأرواح الشريرة. فكان يشتعل حقدا لرؤية الأشجار المقدسة التى كان الفلاحون المصابون بالحمى يعلقون عليها الخرق المعقود عليها الأمل فى أن تتعرض لنوبات الرعشة بدلا منهم عند أقل تنفس فى المساء، والقضبان الذكورية المنتصبة فى الحقول لإجبار الأرض على إخصاب المحاصيل، والآلهة الصلصالية التى تعضض فى تجاويف الحوائط وعلى الحواف الصدفية للينابيع.

كان قد بنى لنفسه كوخا ضيقا على أطراف "سيفيس" لحرصه كل الحرص على ألا يستعمل سوى المواد التى تم تعميدها. وقد تشارك الفلاحون معه غذاءهم القليل، ولكن، لأن هؤلاء الناس كانوا ضعاف البنية، شاحبين، وقليلى الهمة بفعل المجاعات والحروب التى عصفت بهم، لم يتمكن ثيرابيون من قيادتهم إلى الإيمان. لقد كانوا يحبون المسيح ابن مريم، المتشح بالذهب كأنه الشمس المشرقة، لكن

قلوبهم المتصلبة ظلت وفية للآلهة المعلقة بالأشجار أو الطافية مع أمواج المياه. وكانوا كل مساء يضعون أسفل شجرة الدلب التى يعتقدون أنها مسكونة بالجنيات قصعة من لبن العنز الوحيدة التى تبقت لديهم، وكان الغلمان يتسحبون فى الظهيرة تحت الأشجار ليختلسوا النظر لتلك النسوة ذوات الأعين الشبيهة بالعقيق اللاتى تتغذين على العسل والسعتر.

وكن يتكاثرن فى كل مكان، بنات هذه الأرض الصلبة الجافة اللاتى يتبدين فى طينها الذى يتخذ فى التو سمت وجوهر الحقيقة. وكان البعض يعثر على أقدامهن فى صلصال النوافير، وكان بياض أجسادهن يختلط على البعد مع التماعات الصخور. حتى أنه حدث أن جنية مشوهة كانت ما تزال تحيا فى عارضة متهالكة كانت تسند أحد الأسقف. وكان صوتها يعلو بالليل وهى تتشكى أو تغنى. وكل يوم تقريبا كانت إحدى الدواب تنجذب وتضل طريقها فى الجبل، ولا يعثر أحد سوى بعد شهر على كومة عظام صغيرة. وكانت الخبيثات تمسكن بالأطفال من أيديهم وتقودهم للرقص على حواف الحروف الجبلية، ولم تكن أقدامهم الضعيفة لتقوى على ملامسة الأرض، فكانت الهوة تلتقم أجسادهم الصغيرة الثقيلة.

أو كان يحدث أن غلاما صغيرا تلقى به المقادير فى ساحتهم، فيهبط مختنق الأنفاس، يرتجف بالحمى، وقد تجرع الموت مع ماء النبع. وفى أعقاب كل كارثة، كان الراهب ثيرابيون يلوح بقبضته للغابة التى تختفى فيها تلك الملعونات، لكن القرويين كانوا يواصلون

إعزازهم لتلك الجنيات النضرات النصف مرئية. وكان يغفرون لهن شرورهن كما نغفر للشمس التى تفتت أمخاخ المجانين، وللقمر الذى يرضع لبن الأمهات أثناء نومهن، وللحب الذى يتسبب فيما لا حصر له من آلام. وكان الراهب يخشاهن خشيته لعصابة من الذئاب، وكن يزعجنه كأنهن قطيع من العاهرات. ولم تتركه هذه الجميلات غريبات الأطوار أبدا فى حاله. فبالليل، كان يحس بأنفاسهن الحارة على وجهه كأنها أنفاس حيوان نصف جائع يعس بوجل فى الغرفة. وإذا جازف بالسير عبر الحقول حاملا قربان المناولة الأخيرة لأحد المرضى، كان يسمع رجع أصوات كعوبهن وهى تخب فى نزق وتهزهز صغار العنز، وإذا حدث أن سقط فى النوم بعد أرقه الطويل من جرائهن، ساعة الصلاة، كن يأتين بسذاجة ويجذبن ذقنه.

ولم يحاولن أبدا إغواءه، فقد وجدنه قبيحا، عجوزا جدا ومضحكا فى ملابسه الخشنة من الخيش الداكن، كما أنهن على الرغم من جمالهن لم يثرن فيه شهوة نجسة، فقد أثار عريهن اشمئزازه، كما نشمئز من مرأى اللحم الشاحب للديدان أو جلد الحيات الأملس. ومع ذلك فقد نجحن فى استدراجه، إذ انتهى به الأمر إلى الشك فى حكمة الله، الذى صنع هذه المخلوقات المزعجة التى لا جدوى منها، كما لو أن الخلق ليس إلا لعبة شريرة يتلذذ بها.

وذات صباح، وجد الفلاحون كاهنهم عاكفا على قطع شجرة الدلب التى تأوى إليها الجنيات، وتكدروا لذلك مرتين، فقد خشوا من جهة انتقام العفاريت، التى تتحكم فى الينابيع، ومن جهة أخرى كانت

هذه الشجرة تظلل الميدان الذى تعودوا على الاجتماع فيه للرقص. لكنهم لم يجرؤوا على المساس بالرجل القديس، خوفا من خلطته مع الأب الذى فى السموات، الذى يغدق الشمس والمطر. لذا سكتوا وشجع صمتهم الكاهن ثيرابيون على المضى فى مشروعه ضد الجنيات.

ولم يعد الأب يخرج أبدا إلا ومعه حجران يخفيهما فى أكمامه، وفى المساء خلسة، عندما يلاحظ عدم وجود أى فلاح فى الحقول الخاوية، كان يشعل النار فى شجرة زيتون عجوز بدا له أن جذعها المنخور يؤوى تلك الربات، أو فى صنوبرة شابة ذات لحاء يسيل صمغها فى دموع ذهبية، ليهرب أمامه كل شكل عار كان مختفيا بين الأغصان ويهرع للحاق بأصحابه المتجمدين على البعد كالظباء الفزعة، فيغتبط الراهب المقدس لكونه قام بتدبير أحد مآوى الشر.

وراح يدق الصلبان فى كل مكان، وراحت الدواب الصغيرة الإلهية تتباعد، فارة أمام ظل تلك المشانق المهيبة، تاركة حول القرية المطهرة منطقة راحت تتسع من الصمت والعزلة. لكن المعركة تواصلت خطوة خطوة إلى أن وصلت إلى الحواف الأولى للجبل، التى احتمت بفضل الأشواك البرية والأحجار المتساقطة، بما جعل من الصعب مواصلة مطاردة تلك الآلهة. وأخيرا، بعد أن أصبحت محاصرة بالصلوات وبالنيران، وهزلت بفعل عدم وجود القرابين، وحرمانها من الحب بفعل تحول شباب القرية عنهن، راحت الجنيات الخبيثات تبحثن عن مأوى فى واد مقفر به بضع صنوبرات سوداء

مزروعة فى أرض صلصالية تذكر بالطيور العملاقة التى تنشب مخالبها القوية فى الأرض الحمراء وهى تحرك فى السماء الألف نقطة الرهيفة لريشها الشبيه بريش العقاب.

وكانت الينابيع التى ترشح فى هذا الوادى تحت أكوام من الأحجار لا شكل لها، شديدة البرودة، فلم يردها الرعاة، ولم تأت النسوة إليها لغسل الثياب. وكانت هناك مغارة محفورة فى منتصف خاصرة التل، ولم يكن من الممكن دخولها إلا عبر كوة لا تتسع سوى لمرور جسم واحد. وكانت الجنيات تلجأن إلى هذا المكان دائما فى الأماسى التى يشوش فيها الرعد على ألعابهن، فكن يخشين هزيمه، شأنهن شأن كل حيوانات الغابة، كما كن يأتين أيضا للنوم فيه بالليالى غير المقمرة.

وكان بعض الرعاة الشباب يحبون التوجه إلى هذه المغارة مخاطرين بأمنهم بفعل عنفوان شبابهم، ولا يكفون عن الحديث عن تلك الأجساد الناعمة نصف المرئية فى برودة الظلام. وعن خصلات شعرها التى كانوا يتخيلونها أكثر مما يحسون بها. وكانت هذه المغارة المختفية فى الخاصرة الصخرية تبدو للكاهن ثيرابيون كأنها السرطان الكامن فى صدره شخصيا، فكان يقضى الساعات الطوال على حافة الوادى واقفا رافعا يديه لا يتحرك، وهو يتضرع للسماء أن تعينه على القضاء على هذه البقية الباقية الخطرة من ذلك الجنس المؤله.

بعد مرور أيام قليلة على عيد الفصح، جمع الكاهن ذات مساء أتباعه المخلصين، أو أكثر أفرا رعيته خشونة، وسلحهم بالمعاول والفوانيس، وحمل صليبا تجهز به وقادهم فى متاهة التلال، بالظلمات الندية الشديدة الرطوبة. متلهفا على الإفادة من تلك الليلة الحالكة السواد. وتوقف الراهب ثيرابيون على عتبة المغارة، ولم يسمح لأتباعه بدخولها، خوفا من أن يقعوا فريسة الإغواء. وتعالى صوت خرير الينابيع، فى الظل الداكن، وخفق لهاث خافت، كانت له نعومة النسيم فى الكروم، هو صوت أنفاس الجنيات النائمات، اللاتى امتلكن شباب العالم فى الزمن الذى لم يكن الإنسان قد تواجد فيه بعد. ولم تكن الأرض قد أنجبت سوى الأشجار، والدواب والآلهة. وأشعل الفلاحون نارا عظيمة، ولكن كان من الضرورى عدم إشعال الصخور، وأمرهم الراهب بكشط الجبس وتجريف الحجر. وعند بزوغ أول ضوء للفجر، شرعوا فى بناء كنيسة صغيرة استندت إلى خاصرة التل، بمواجهة فتحة المغارة اللعينة.

ولم تكد الحوائط تجف بعد، ولم يكن السقف قد وضع فوقها، كما كانت بغير أبواب، ومع ذلك عرف الراهب أن الجنيات لن تحاولن الاختباء بهذا المكان المقدس، الذى قام بالفعل بتعميده وتسخيره لله. ولمزيد من اليقين، قام الراهب بغرس تمثال ملون للمسيح على صليب بطول أربعة أذرع فى عمق الكنيسة، بالمكان المواجه للفتحة الصخرية، وتراجعت الجنيات، اللاتى لم تكن تفهمن سوى الابتسامات، من الرعب أمام صورة الإله المعذب.

وتمدد أول شعاعات الشمس باستحياء حتى عتبة المغارة، وكانت تلك هى الساعة التى تخرج فيها التعسات، لكى يتناولن تحت الأشجار المجاورة أولى وجباتهن من الندى. وراحت الأسيرات تنتحبن، راجيات الراهب أن يساعدهن ووعدنه فى براءتهن أنه إذا سمح لهن بالهرب فسوف يحبونه. واستمر العمل طوال اليوم، وحتى المساء، وشوهدت الدموع تتساقط من الحجر، وسمع سعال وصراخ متحشرج شبيه بحشرجات الدواب الجريحة. وفى اليوم التالى، وضع السقف، وزخرف بباقة من الورد، وتم ضبط وضع الباب، ووضع فى فتحة قفله مفتاح كبير من الحديد.

فى تلك الليلة، عاد الفلاحون المتعبون إلى القرية، لكن الراهب ثيرابيون نام بجوار الكنيسة التى اقامها، وظل طوال الليل يتلذذ رغم أرقه من توسلات السجينات. وكان عطوفا مع ذلك، إذ أشفق على دودة احتقرها، وعلى تاج زهرة تقصف من احتكاكه بثوبه الكهنوتى، لكنه كان أشبه برجل مغتبط لكونه سجن وكرا لحيات فتية بين قالبين.

فى اليوم التالى أحضر الفلاحون ماء الجير، وقاموا بطلاء الكنيسة من الداخل والخارج، فصار شكلها كحمامة جاثمة فى قلب الصخور. وأقدم فلاحان، كانا أقل رعبا من الآخرين على دخول المغارة لتبييض جدرانها الرطبة المسامية، لكى تتوقف مياه الينابيع ويكف عسل النحل عن الارتشاح داخلها لمساعدة النسوة العفاريت خائرات القوى على الاستمرار فى الحياة. ولم تعد لدى الجنيات المنهكات بعد القوة الضرورية للظهور أمام البشر، فبالكاد، هنا

وهناك أمكن بالضوء الخافت وعلى نحو مبهم تخمين شفتين شابتين متقلصتين، أو يدين ضارعتين، أو وردة ثدى شاحبة فى الظل. أو، من وقت لآخر، عندما كانا يمرران أصابعهما الخشنة البيضاء بفعل الجير، كان الفلاحان يشعران بخصل شعر ناعمة مرتجفة كتلك النبتات الشعرية التى تنمو بالأماكن الرطبة المهجورة، وتحولت الأجساد الشاحبة للجنيات إلى طين، تأهبا للتساقط ترابا كأجنحة الفراشة الميتة، وكن يتأوهن باستمرار، ولكن كان من الضرورى الإصغاء بعناية لتسمع شكاياتهن الواهنة، فلم يكن قد تبقى منهن بعد سوى أرواح الجنيات التى تبكى.

وطوال الليلة التالية، واصل الراهب ثيرابيون صلواته على عتبة الكنيسة، كأنه ناسك بالصحراء. وأسعده التفكير بأنه قبل تمام القمر الجديد ستتوقف تلك التأوهات، وأن الجنيات الميتات جوعا لن تظل منهن بعد ذلك سوى ذكرى دنسة. وراح يصلى متعجلا اللحظة التى يحرر فيها الموت سجيناته، لكنه راح رغما عنه يتحسر عليها، ونقم على نفسه لذلك الضعف المخزى. ولم يعاوده أحد، وبدت له القرية بعيدة كما لو أنها تقع على الحافة الأخرى للعالم، ولم يعد يلحظ على المنحدر المواجه للوادى إلا الأرض الحمراء، والصنوبر، وممرا نصف معتم مختف أسفل القمم المذهبة. ولم يعد يسمع سوى تلك الحشرجات التى راحت تخبو تدريجيا، وصوت صلواته هو الذى راحت بحته تعلو.

في مساء ذلك اليوم، شاهد بالممر امرأة أتت نحوه. كانت تسير خافضة الرأس، منحنية بعض الشئ، مرتدية معطفا ومنديلا أسودين، لكن نورا سحريا شبيها بضوء النهار كان يطل من ذلك النسيج الداكن كما لو أنها قامت بسكب الليل على الصباح. وفي حين أنها كانت شابة، كانت ذات مهابة وهدوء ولها عزة نفس امرأة مسنة، كما كان لحضورها عذوبة العنقود الناضج والزهرة العطرة. وبمرورها على الكنيسة نظرت إلى الراهب بإمعان، بما جعله يضطرب في صلواته.

ــ هذا الممر لا يؤدي إلى مكان أيتها السيدة، قال لها، من أين أتيت؟

ــ من الشرق، مع الصباح، قالت المرأة الشابة. وماذا تفعل أنت هنا أيها الراهب العجوز؟

ــ إنني أحبس في هذه المغارة الجنيات اللاتي ما زلن يغزون القطر، قال الراهب، وقد عمدت كنيسة أمام فتحة المغارة كي لا تجرؤن على المرور والهرب، لأنهن عرايا، ويخشين الله على طريقتهن. وأنا بانتظار أن يمتن جوعا وبردا في مغارتهن، وعندما يتم ذلك، سيعم سلام الله على الحقول.

ــ أتقول بأن سلام الله لا يعم على الجنيات كما يعم على الظباء وقطعان الغنم؟ أجابته المرأة الشابة، ألا تعلم أن الله نسي في زمن الخلق الأول أن يضع أجنحة لبعض الملائكة، فسقطوا على

الأرض واستقروا بالغابة، وصاروا يشكلون جنس الجنيات والآلهة الرعاة؟ لقد سقط البعض منهم على الجبال فأصبحوا هم آلهة الأولمب. لا تمجد كالوثنيين المخلوق على حساب الخالق، ولكن لا تخجل كذلك من عمل الله. واشكره فى قلبك لأنه خلق ديانا وأبوللو؟

ــ إن عقلى لا يرقى إلى مصاف كهذا، قال الراهب العجوز بتواضع، والجنيات تثرن الاضطراب فى رعاياى وتعرضن سلامهم للخطر، وأنا مسؤول عنهم أمام الله، وهو ما يجعلنى أتعقبهن، لو تطلب الأمر، حتى الجحيم.

ــ وهذا الحماس سيحسب لك، أيها الراهب الأمين، قالت المرأة الشابة، وهى تبتسم. ولكن ألا تجد طريقة أخرى للتوفيق بين حياة الجنيات وسلام رعاياك؟

كان صوتها ناعما كموسيقى الناى، وخفض الراهب القلق رأسه، ووضعت المرأة الشابة يدها على كتفه وقالت له بمهابة:

ــ أيها الراهب، دعنى أدخل هذه المغارة، إنى أحب المغارات، وأشفق على من يبحثون فيها عن المأوى، لقد وضعت طفلى فى مغارة، وفى مغارة أودعته دون خشية من الموت، كى يعانى مولده الثانى من أجل البعث.

وأفسح الناسك أمامها كى تمر. وتوجهت هى بغير تردد نحو مدخل الكهف، المختفى وراء المذبح، وكان الصليب الكبير بمثابة

الحاجز على العتبة، فأزاحته بهدوء كأنه شئ عادى، ودلفت إلى داخل الغار.

وتعالت من الظلمات تنهدات أكثر حدة، وتعالت زقزقات ورفرفات أجنحة. وسمع صوت المرأة الشابة يحدث الجنيات بلغة غير مفهومة، ربما كانت لغة الطير أو الملائكة. وبعد برهة، ظهرت ثانية إلى جوار الراهب، الذى لم يتوقف عن الصلاة.

ــ أنظر أيها الراهب، قالت، واستمع.

وتعالت أعداد لا تحصى من الصرصرات داخل معطفها. فقد حررت الآلهة الرعاة. ورأى الراهب ثيرابيون أنها حملت فى ثنايا ثوبها مئات من عصافير السنونو الصغيرة. وفتحت ذراعيها على اتساعهما كأنها امرأة تصلى، وحررت تلك الطيور. ثم قالت، وكان صوتها جليا كأنه صوت القيثارة:

ــ إذهبوا يا أطفالى.

واندفعت الطيور محلقة فى السماء الليلية، راسمة مناقيرا وأجنحة بعلامات لا تحصى. وتابعها العجوز والمرأة الشابة بنظرهما لبرهة، بعدها قالت المسافرة للوحيد:

ــ سوف يأتون إلى هنا كل عام، وستؤويهم بكنيستى، وداعا يا ثيرابيون.

وذهبت مريم العذراء من خلال الممر الذى لا يفضى إلى مكان، كامرأة لا يهمها كثيرا أين ينتهى الطريق، بما أنها تعرف كيفية السير فى السماء. ونزل الراهب ثيرابيون إلى القرية، وفى اليوم التالى، عندما عاد لإحياء القداس، كانت مغارة الجنيات مفروشة بأعشاش السنونو.

وظلت العصافير تعود كل عام، وتذهب وتجىء بالكنيسة، عاكفة على إطعام صغارها أو على تقوية أعشاشها الطينية، وغالبا ما كان الراهب ثيرابيون يقطع صلواته لكى يتابع بحنان غزلها ولعبها. لأن ما هو محرم على الجنيات، مسموح به لعصافير السنونو.

أفروديسيا الأرملة

كان يدعى كوستيس الأحمر لأن شعره كان أصهب اللون، ولأن اسمه كان مرتبطا فى الذاكرة بكم هائل من الدم المراق، وقبل كل شيء، لأنه كان يرتدى سترة حمراء عندما كان يهبط بسفاهة إلى سوق الخيل ليجبر فلاحا مرتعبا أن يبيعه أفضل ركوبة بثمن بخس، خشية تعريض نفسه لأشكال مختلفة من الموت المفاجئ. لقد عاش مختبئا بالجبل، على مسيرة عدة ساعات من قريته مسقط رأسه، وكانت شروره لزمن طويل محصورة فى بعض الاغتيالات السياسية المختلفة، أو فى سرقة بعض الخراف الهزيلة. ثم تمكن من العودة لورشة حدادته بغير قلق، لكنه كان من هؤلاء الذين يفضلون دوما طعم الخلاء الرحيب والطعام المسروق. ومن ثم أثارت جريمتان أو ثلاث من جرائم القتل الجنائى ثورة فلاحى القرية، وتعقبوه كذئب هارب أو كخنزير بري. ونجحوا أخيرا فى اصطياده ليلة عيد القديس جورج، وعادوا به إلى القرية على ظهر دابة، مذبوحا كبهيمة الجزار، وكذلك لقى الشباب الثلاثة أو الأربعة الذين تبعوه أثناء حياته نفس مصيره، مخترقين بالرصاص أو مطعونين بالسكاكين. وعلقت رءوسهم على مذارى نصبت بميدان القرية، وكومت الجثث بعضها فوق بعض عند باب المقبرة، واحتفل الفلاحون المنتصرون. محتمين من الشمس والذباب وراء شيش نوافذهم المغلقة، وراحت أرملة

الكاهن العجوز الذى اغتاله كوستاكى منذ ستة أعوام على طريق مقفر، تبكى فى مطبخها وهى تغسل الكئوس التى قدمتها مليئة بالشراب للفلاحين الذين انتقموا لها.

جففت الأرملة أفروديسيا عينيها، وجلست على الكرسى الوحيد بالمطبخ، متكئة على حافة المنضدة بكوعيها، واضعة على كفيها ذقنها التى راحت ترتعد كذقن امرأة عجوز. كان اليوم أربعاء، ولم تكن قد أكلت شيئا منذ يوم الأحد. كما كان لها ثلاثة أيام لم تذق فيها طعم النوم. وراحت شهقاتها المختنقة تهز صدرها تحت الثنايا السميكة لثوبها الأسود. وراحت تنعس رغما عنها، ثم قامت فجأة فى قفزة واحدة، فلم تكن تلك لحظة الغفوة والنسيان. فخلال ثلاثة أيام بلياليها، ظل نساء القرية يصحن عند سماع كل طلقة تدوى بالجبل ويصل لهن صدى صوتها، وكانت صرخات أفروديسيا أعلى من صرخات صاحباتها، كما يجب أن يكون رد فعل امرأة شخص محترم كالكاهن العجوز الراقد منذ ست سنوات فى قبره. وكانت بحال سيئة عند عودة الفلاحين فجر اليوم الثالث ومعهم حمولتهم الدامية على البغل المتعب، وكان على جيرانها أن يعيدوها إلى بيتها الصغير الذى تسكن فيه منعزلة منذ ترملت، ولكن سرعان ما عادت لوعيها، وأصرت على أن تقدم شرابا لمن أخذوا بثأرها. وكانت يداها وساقاها ترتجف وهى تقترب من كل واحد من الرجال الذين أشاعوا بالغرفة رائحة لا تطاق بسبب العرق والتعب، فلم تتمكن من إضافة قطع الخبز والجبن إلى الشراب الذى قدمته لهم. وراحت تبصق خلسة، متمنية ألا يهل قمر الخريف إلا وهم موتى فى قبورهم.

في تلك اللحظة التي كان عليها فيها أن تعترف بكل ما حدث في حياتها، لتربك حماقتهم أو لتؤكد ظنونهم السيئة، وتصيح في آذانهم بتلك الحقيقة التي كانت بسيطة وقاسية ومتكتما عليها في آن معا لمدة عشرة أعوام، وهي حبها لكوستيس، ولقاؤهما الأول في طريق مقفر، تحت شجرة توت احتمت بها من وابل من البرد، وعاطفتهما التي ولدت مع وميض البرق الخاطف لتلك الليلة الراعدة، وعودتها للقرية، ونفسها مضطربة، وهي أكثر هلعا منها نادمة، والأسبوع القاسي الذي قضته تحاول التخلص من هذا الرجل الذي أصبح ضرورة بالنسبة لها أكثر من الخبز والماء، وزيارتها الثانية لكوستيس، بذريعة تزويد أم الكاهن بالدقيق وهي التي كانت تعيش وحدها بمزرعة بالجبل، والمئزرة الصفراء التي لبستها في ذلك الوقت، والتي اتخذاها غطاء تغطيا به، فكانا كما لو اندسا تحت مزقة من الشمس، وذلك المساء الذي كان عليهما الاختباء به في اسطبل خان تركي مهجور، وكيف أن أغصان الكستناء النضرة التي راح يدفعها في طريقه كانت تلفعهما بدفقات الهواء البارد، وكيف كان ظهر كوستيس المنحني يتقدمها على الممرات التي كان من شأن أقل حركة فيها أن تثير إحدى الحيات الساكنة، وتلك الندبة التي لم تلاحظها في يومها الأول، وكانت ظاهرة بشكل ملتو على رقبتها، والنظرات المستوعبة المجنونة التي كان يحدجها بها، كما لو كان ينظر إلى شيء ثمين مسروق، وجسده الرجولي المتين الذي تعود الحياة الخشنة، وضحكته التي كانت تبعث فيها الاطمئنان، والطريقة التي كان يتلعثم بها في نطق اسمها أثناء ممارسة الحب.

ونهضت مستندة بعناء كبير إلى الحائط الأبيض الذى كانت عليه ذبابتان أو ثلاث، وكانت ذبابات كبيرة من تلك الحشرات التى تتغذى على الأوساخ ولم تكن سوى طفيليات ملحفة بعض الشيء، نحتمل مرورها على جلودنا فى رواحها وغدوها الهش الخفيف، لكنها ربما وضعت رحالها على هذا الجسد العارى، وعلى تلك الرأس المدماة، لتضيف قذاراتها إلى ركلات الأطفال ونظرات النساء الفضولية. آه، لو أن أحدا تمكن بحركة مسح صغيرة أن يمحو كل هذه القرية، وتلك النسوة العجائز ذوات الألسنة السامة كإبر النحل، وهذا الكاهن الصغير المتعطش لشراب الصلوات، والذى يزأر فى الكنيسة ضد من اغتال سلفه، وهؤلاء الفلاحون المهتاجون على جسد كوستيس كالدبابير على فاكهة تسيل العسل. هم لا يتخيلون أن حزن أفروديسيا يمكن أن يكون له سبب آخر سوى هذا الكاهن العجوز المتوارى منذ ست سنوات فى أفضل موضع بالمقبرة، فلم يكن بوسعها أن تصرخ بأنها شقيت بحياة هذا السكير المنتفخ كأنه دكة خشبية موضوعة فى عمق الحديقة.

ومع ذلك، وبالرغم من شخيره الذى كان يحول دونها والنوم، وطريقته التى لا تطاق فى حك رقبته، فقد أسفت على مصيره، ذلك العجوز التافه الساذج الذى ظل يخدعها، ثم بعد ذلك راح يرهبها، بمبالغته الهزلية الشبيهة بمبالغات تلك الشخوص الغيورة التى تثير الضحك على شاشة عارضى خيال الظل، فقد أضاف عنصرا هزليا لمأساة حبه. وكان أمرا حسنا خنق دجاجات الكاهن التى كان

كوستيس يحملها تحت سترته، فى الأمسيات التى كان ينزل فيها خلسة حتى بيته، ثم تتهم هى بعد ذلك الثعالب بسرقتها. وكان أمرا حسنا أيضا، أنه ذات مساء عندما صحا الكاهن بسبب علو صوتيهما وهما يتطارحان الغرام تحت شجرة الدلب، رؤية الرجل العجوز متكئا على حافة النافذة، يراقب كل حركة لظلهما على سور الحديقة، وهو موزع النفس بشكل يدعو للسخرية بين الخوف من الفضيحة والخوف من أن يقتل برصاصة وبين رغبته فى الانتقام. الشيء الوحيد الذى لامت عليه أفروديسيا كوستيس هو بالتحديد قتله لهذا العجوز، الذى لعب رغم أنفه دور الغطاء لحبهما.

منذ ترملت، لم يشك أحد فى المواعيد الخطرة التى كانت تعطيها لكوستيس فى الليالى غير المقمرة، لدرجة أنه لم ينقص لاستكمال لذتها سوى وجود من يتفرج عليهما. وعندما بدأت نظرات النساء المسنات تنصب على ما طرأ بجسد المرأة الشابة من تغيرات زادت من وزنه، تخيلن جميعا أن أرملة الكاهن وقعت تحت إغواء أحد التجار المتجولين، أو تحت إغواء عامل مزرعة، كما لو أن هؤلاء الناس كانوا من النوع الذى ترضى أفروديسيا بالنوم معه. وكان عليها أن تتقبل بسعادة شكوكهم المخزية وتبتلع كبرياءها وأن تحرص أكثر على ألا تبدى اشمئزازها. وعندما شاهدنها بعد بضعة أسابيع من ذلك، وقد عادت بطنها إلى طبيعتها تحت مئزرتها الرخوة، تساءلن جميعهن عما فعلته أفروديسيا من أجل أن تتخلص بسهولة هكذا من حملها.

ولم يتشكك أحد فى أن زيارة معبد القديس لوقا لم تكن سوى ذريعة، وأن أفروديسيا ظلت أثناء ذلك طريحة على بعد عدة فراسخ من القرية، فى كوخ أم الكاهن التى صارت ترضى أن تخبز لكوستيس وترفو له سترته. ولم تكن امرأة طاعنة فى السن رقيقة القلب، بل كان كوستبس يزودها بالشراب، كما كانت هى الأخرى قد عرفت العشق فى شبابها وتذوقته. وفى هذا المكان، وضعت أفروديسيا مولودها، وكان عليها أن تخنقه فور ولادته، وهو ضعيف، عار، كأنه قط صغير مولود، بغير أن تتكبد حتى مشقة غسله بعد ولادته.

ثم كانت حادثة اغتيال العمدة التى قام بها واحد من رفاق كوستيس، كما واصلت الأصابع النحيفة للرجل الضغط بشراسة زائدة على زناد بندقية صيده القديمة، ثم جاءت تلك الأيام الثلاثة بلياليها التى بدا فيها أن الشمس كانت تشرق وتغرب فى الدم. وفى ذلك المساء، انتهى كل شيء، واندلعت نيران البهجة التى جمعت لها صفائح البنزين على باب المقبرة، وسوف يعامل كوستيس ورفاقه معاملة جثث البغال التى يرش عليها النفط وتحرق كى لا يتكبد البعض مشقة دفنها، ولم يتبق بعد أمام أفروديسيا سوى بضع ساعات من الوحدة حتّى غياب الشمس ولبس ثوب الحداد.

ورفعت مزلاج الباب، ثم خرجت إلى السهل الذى يفصلها عن المقبرة. كانت الجثث المكومة موضوعة إلى جوار الحائط الخشن، ولكن لم يكن من الصعب التعرف على كوستيس، فقد كان أضخمهم،

كما كانت هى تحبه. وكان فلاح جشع قد سلبه صدريته ليتباهى بها يوم الأحد، كما كان الذباب يتراكم بالفعل على الدماء التى تسيل من جفنيه، وكان عاريا تماما تقريبا.

وراح كلبان أو ثلاثة يلعقون الآثار السوداء للدم، ثم عادت الكلاب لتقعى فى شريط الظل الضيق وهى تلهث. وعند المساء، فى اللحظة التى خفت فيها حرارة الشمس، بدأت جماعات صغيرة من النساء فى التجمع حول هذه الشرفة الصغيرة، ورحن يتفحصن آثار الدم الذى أصاب كوستيس بين كتفيه. وعلى بعد خطوة منهن قام الرجال بتعديل وضع الجثة لكى يشبعوا ما تبقى عليها من ملابس بالبنزين، وبدأوا يفتحون الصفائح بفرحة قاطفى العنب عند فتحهم سدادة برميل الشراب. وتحسست أفروديسيا الكم الممزق للقميص الذى كانت قد خاطته بيديها لكى تقدمه هدية لكوستيس فى عيد الفصح. وتعرفت فجأة على اسمها الذى حفره كوستاكى فى نهاية الذراع اليسرى. لو أن عيونا أخرى غير عينيها وقعت على هذه الأحرف المحفورة برعونة فى الجلد، فسوف تومض الحقيقة فجأة فى عقولهم كشعلات البنزين التى بدأت تتراقص على حائط المقبرة. وتحجرت فى مكانها متوارية وراء الأحجار. ولم تتمكن مع ذلك من قطع هذه الذراع التى تدينها بما كان بينهما من حنان، أو تقوم بتسخين قطعة حديد لكى تطمس بها هذه العلامات التى قد تتسبب فى ضياعها. كما لم تتمكن من أن تحدث جرحا فى هذا الجسد الذى نزف الكثير من دمائه بالفعل.

كانت تيجان الحديد الأبيض التى تحيط بقبر الكاهن إتيين تلتمع على الناحية الأخرى من الحائط المنخفض للأرض المسورة المخصصة له، وذكرها ذلك التل المقوس فجأة بكرش العجوز السمين. فبعد ترملها، تم نبذ أرملة الكاهن المرحوم فى هذا الكوخ القائم على بعد خطوتين من المقبرة، ولم تشك من الحياة فى هذا المكان المعزول، الذى لم يكن يتنفس إلا هواء المقابر، حتى أن كوستيس كان بوسعه المجازفة عندما يخيم الليل على هذا الطريق، الذى لا يعبره كائن حى، كما كان حفار القبور الذى يعيش فى المنزل المجاور أصما يحيا كالميت. ولم يكن قبر الكاهن إتيين يفصله عن هذا الكوخ سوى حائط المقابر، وكان يخامرهما الشعور بأنهما يواصلان تحسس ذقن شبحه. واليوم سمحت هذه العزلة نفسها لأفروديسيا أن تحقق مشروعا جديرا بحياتها المليئة بالحيطة والحذر، وبإزاحتها الحاجز الخشبى المتآكل بفعل الشمس، استولت على معول ومجرفة حفار القبور.

كانت الأرض صلبة وجافة، وراح عرق أفروديسيا يسيل بغزارة لم تعهد مثلها مع دموعها. ومن وقت لآخر، كان المعول يصطدم بحجر، لكن هذه الضجة بذلك المكان المقفر لم تنبه أحدا، وكانت القرية كلها تنام بعد العشاء. وأخيرًا سمعت تحت المعول الصوت الجاف للخشب القديم، وعثرت على تابوت الكاهن إتيين الذى كان أكثر هشاشة من خشب قيثارة. وتصدع التابوت تحت الضغط، كاشفا عن العظام القليلة والحلة المجعدة التى تبقت من جثمان

العجوز. وصنعت أفروديسيا من هذه البقايا كومة دفعتها بعناية فى ركن من أركان التابوت، وجرت جسد كوستيس من إبطيه إلى الحفرة. وكان عاشق الأمس أطول من الزوج بمسافة طول الرأس، لكن التابوت كان كبيرا بشكل يتسع لكوستيس المقطوع الرأس. وأقفلت أفروديسيا الغطاء، وكومت التراب من جديد على القبر، وغطت التل الذى كان قد تهوش بأكاليل كانت قد اشتريت فيما مضى بتبرعات أتباع الكنيسة، ثم سوت تراب الممر الذى سحبت عليه الجثة. لقد نقصت الآن جثة من الكومة الطريحة بمدخل المقابر، لكن الفلاحين مع ذلك لن يرهقوا أنفسهم بالبحث فى كل القبور للعثور عليها.

وجلست أفروديسيا لاهثة، ثم نهضت من توها، فقد استمتعت بعمل الدفن الذى قامت به. وكان رأس كوستيس لايزال مرفوعًا، معروضًا بازدراء، ومشكوكًا بطرف مذراة بالمكان الذى تركته القرية موضعا للصخور وللسماء. ولم يكن الأمر قد انتهى بما أنها لم تكن قد أتمت طقوس جنازتها، وكان عليها أن تتعجل الإفادة من الساعات الشديدة الحرارة التى يحتمى فيها الناس بالنوم فى منازلهم، وينشغلون بعد دراخماتهم، وممارسة الحب وترك الميدان بالخارج خاليا فى الشمس.

بالتفافها حول القرية، تخيرت للصعود إلى القمة الطريق المنحدر الصاعد الذى نادرا ما يسلكه أحد. وكانت الكلاب الهزيلة تتعس فى مساحة الظل الضيقة بمدخله، وركلتها أفروديسيا بقدمها

أثناء مرورها، منفثة فيها عن حقدها الذى لم تتمكن من تنفيثه فى أسيادها. ولأن أحد الكلاب قام منتفضا يعوى ويتأوه فى نباح طويل، توقفت لحظة لملاطفته والتربيت عليه. وكان الهواء يلسع كأنه حديد ساخن، ولفت أفروديسيا شالها حول وجهها، كى لا يصعقها الحر قبل إتمام مهمتها.

وأفضى الممر أخيرا إلى فناء أبيض مستدير. وفى الأعلى لم تكن هناك سوى الصخور الكبيرة التى تتخللها الكهوف التى لا خطر فيها إلا من اليائسين من أمثال كوستيس، والتى كان الغرباء يستمعون لأصوات الفلاحين الخشنة تحذرهم من المغامرة بارتيادها. أعلى من ذلك لم يكن سوى الصقور والسماء، وكانت الصقور وحدها هى التى تعرف المدارج. وكانت الرءوس الخمسة لكوستيس وأصحابه فوق مذاريها تكشر بأشكال مختلفة ارتسمت عليها ملامح الموت. وقد زم كوستيس شفتيه كما لو أنه يفكر فى مشكلة لم يجد وقتا لحلها فى حياته، كشراء حصان أو الحصول على فدية رهينة جديدة، وكان الوحيد بين أصدقائه الذى لم يغير الموت ملامحه كثيرا، فقد كان دوما، وعلى نحو طبيعى، شاحبا للغاية.

وأمسكت أفروديسيا بالرأس الذى صدر عنه وهى تنزعه من المذراة صوت يشبه صوت تمزق الحرير. وفكرت فى أن تخفيه فى بيتها، تحت أرضية المطبخ، أو ربما فى كهف لا يعرف أحد غيرها سره، وربتت على هذه البقايا مطمئنة إياها بأنها قد أنقذت.

وذهبت لتجلس تحت شجرة الدلب التى انتصبت بأعلى الميدان، فى أرض المزارع بازيل. وتساقطت تحت قدميها صخور تدحرجت بسرعة تجاه السهل. وكانت الغابات التى توشى الأرض تبدو من بعيد كطحالب شديدة الصغر. وبدا البحر فى عمق المشهد بين شفتين جبليتين، فقالت أفروديسيا لنفسها لو أنها تمكنت من ترتيب أمر كوستيس فسوف تمر على أمواجه. فليس هناك الآن ما يجبرها على أن تهدهد فوق ركبتيها رأسا محززا بالدماء. وانفجر نحيبها، المستمر منذ بدأت محنتها، فى زفرات عنيفة كزفرات الباكيات بالجنازات، وهى تضع مرفقيها على ركبتيها، وكفاها تضغطان خديها المبتلين، ودموعها تسيل بغزارة فوق وجه الميت.

ـ أنت هناك، أيتها اللصة، يا أرملة الكاهن، ماذا تفعلين فى حديقتى؟

كان العجوز بازيل مسلحا ببلطة وعصا، رابضا أعلى الطريق، وقد أحالته هيئته المتوجسة الغاضبة إلى ما يشبه خيال المآتة. ونهضت أفروديسيا فى قفزة واحدة، وهى تغطى رأس الميت بمنزرتها:

ـ لم آت لأسرق سوى بعض الظل، أيها العم بازيل، قليلا من الظل أروح به عن جبينى.

ـ ما الذى تخفينه بمنزرك أيتها اللصة، يا أرملة التافه؟ ثمرة قرع؟ أم بطيخة؟

ـ إنى فقيرة أيها العم بازيل، ولم آخذ سوى بطيخة حمراء. لا شئ سوى بطيخة حمراء ذات لب أسود.

ـ أرينى هذا، يا كاذبة، أيتها الخنفسة السوداء، أعيدى لى ما سرقته.

وهبط العجوز بازيل على المنحدر مشرعا عصاته. وراحت أفروديسيا تجرى باتجاه الهوة، ممسكة بيدها ذيل مئزرها. وصار المنحدر أكثر فأكثر خشونة، والممر زلقا أكثر فأكثر. كما لو أن لون الشمس الدامى، وهى على وشك المغيب، قد طلا الأحجار فجعلها أشد لزوجة. وكف العجوز بازيل عن مطاردتها، وراح يصرخ بكل قوته ليحذر الهاربة كى تعود للوراء، فلم يكن الممر إلا مدرجا من ركام الصخور. وسمعت أفروديسيا صرخاته، لكنها لم تفهم من كلماته التى تمزقت أوصالها فى الريح سوى ضرورة أن تهرب، من القرية، ومن الكذب، ومن اشتداد النفاق، ومن العقاب الطويل حين تصبح امرأة عجوزًا مهملة لا يحبها أحد. ثم تحرك حجر أخيرا تحت قدمها، فتدحرج ليسقط فى عمق الهوة، كما لو كان يريها الطريق، وسقطت أفروديسيا الأرملة فى الهاوية مع الغروب، حاملة معها الرأس الملطخ بالدم.

كالى ذات الراس المقطوع

راحت كالي؛ الالهه الرهيبه؛ تتجول عبر سهول الهند.

كان الناس يلتقون بها فى نفس الوقت بالشمال والجنوب؛ وفى الأماكن المقدسه والأسواق فى آن واحد. كانت النساء ترتعدن عند عبورها؛ وكان الشباب، الذين يتشممونها يهرعون إلى عتبات الأبواب، كما كان الأطفال الرضع يعرفون بالفعل اسمها. كانت كالى السوداء رهيبة وجميلة . وكانت نحيلة القوام لدرجة أن الشعراء الذين كانو يتغنون لها كانوا يقارنونه بشجرة الموز. وكانت أكتافها مستديرة استدارة قمر الخريف؛ وأثداؤها ناهدة كبراعم على وشك التفتح؛ وأردافها مائجة كخرطوم فيل مولود صغير، وأكعابها خفيفة خفة النبت الصغير.

كان فمها حارا كالحياة؛ وعيناها غائرتين كالموت. كانت تظهر تباعا فى برونز الليل، وفضة الفجر، ونحاس الغسق، وذهب الظهيرة، تتامل نفسها. ولكن شفتاها لم تبتسم أبدا؛ كما كانت تلتف حول جيدها الرهيف مسبحة من العظام. وفى وجهها الأكثر صفاء من باقى جسدها، كانت عيناها تطلان صافيتين حزينتين. كما كان وجه كالى المبلل بشكل أبدى بالدموع شاحبا تغطيه هالة وردية كوجه الصباح القلق.

كانت كالى كريهة. إذ فقدت مكانتها المقدسة بسبب ترددها على المنبوذين، والمحكومين بالإعدام كما كانت قشرة محرشفة تغطى وجهها الذى يقبله المجذومون. وكانت تنام فى أحضان رعاة الابل الآتين من الشمال، الذين لا يغتسلون أبدا من شدة البرد؛ وتنام على الأسرة التى تشغى بالحشرات مع الشحاذين العميان، وتنتقل من معانقة البراهمة لعناق البؤساء، ذوى الأصل الدنيء، والمدنس المكلفين بغسل الجثث؛ وكانت كالى تتمدد فى الظل الهرمى للأحطاب مسترخيه على الرماد الدافئ. كما كانت تحب البحارة الغلاظ الأقوياء؛ وتقبل حتى الزنوج الذين يخدمون بالأسواق، المكدودين أكثر من دواب الركوب؛ وتحك رأسها بأكتافهم المسلوخة من كثرة الغدو والرواح تحت ثقل الأحمال. وكانت تجول من قرية لقرية، ومن منعطف لمنعطف، كالمحرورة، التى لم تتمكن أبدا من الحصول على شراب بارد، بحثا عن نفس الملذات الكئيبة.

كانت قداماها الصغيرتان ترقصان برجفة تحت خلاخيلهما ذوات الرنين، لكن عينيها لا تكفان عن ذرف الدموع، وفمها المتألم لا يوزع القبلات، ولا تربت رموشها خدود معانقيها، كما يظل وجهها شاحبا على نحو أبدى كالقمر الرائق النقى.

فيما مضى، كانت كالى نموذجا للكمال، تجلس فى السماء على عرش إندرا كأنها داخل فص من الياقوت الأزرق، والماس الصباحى يتلألأ فى نظرتها، والكون كله ينقبض ويتمدد بحسب نبضات قلبها.

لكن كالى، الكاملة كالوردة، والنقية كضوء النهار، لم تكن تعرف شيئا عن كمالها، كما لم تكن تعرف شيئا عن نقائها.

وذات ليلة دامسة، ألقاها الآلهة الذين يشعرون بالغيرة منها، فى مخروط من الظل، بركن كوكب تواطأ على جريمتهم. فقطعت رأسها بفعل صاعقة. وبدلا من أن يطفر منها الدم، تدفق الضوء منبثقا من عنقها المقطوع. وقام الجن بإلقاء جثمانها المفصول لجزأين فى حفرة، فأخذ يتدحرج إلى أن بلغ الجحيم، حيث يعانى الذل ويتنهد هؤلاء الذين لم يروا أو رفضوا أن يروا نور القداسة. وهبت ريح باردة، مكثفة من الضوء الذى سقط من السماء؛ وتجمعت طبقة بيضاء على قمم الجبال، تحت الفراغ المرصع بالنجوم الذى بدأ يظهر بفعل الليل. فهربت الآلهة المتوحشة والآلهة التى تتخذ صور الماشية، والآلهة ذوات الأذرع المتعددة والسيقان المتعددة، الشبيهة بالعجلات التى تدور عبر الظلام، لإصابتها بالعمى بسبب هالاتها، وأسف المخلدون المذعورون على جريمتهم.

ونزل الآلهة النادمون على امتداد سقف العالم، فى لجة الدخان التى تستذل فيها كل الموجودات. وعبروا مراحل المطهر التسعة، فمروا أمام زنازين الطين والثلج التى يتندم فيها الأشباح الذين يعذبهم وخز ضمائرهم على الأخطاء التى ارتكبوها، وأمام سجون النار حيث الموتى الآخرون، يعذبون بسبب الجشع الفانى، وهم يبكون على الأخطاء التى لم يرتكبوها. ودهش الآلهة لعثورهم لدى البشر على هذا الخيال اللانهائى للشر، ومنابعه، وقلقه الشديد على المتعة

والخطيئة. وفى عمق مدفن بأحد المستنقعات، كانت رأس كالى تتموج كزهرة لوتس، وكانت خصلات شعرها الأسود الطويل تطوف حولها كجذور عائمة.

وحملوا بورع هذه الرأس الجميلة المدماة، وشرعوا فى البحث عن الجسد الذى كان يحملها. وكان هناك جسد مقطوع الرأس على حافة الطريق. فأخذوه، ووضعوا رأس كالى على الأكتاف وأعادوا بعث الإلهة.

كان هذا الجسد جسد عاهرة، حكم عليها بالموت لأنها شوشت تعبد أحد البراهمة الشباب. ولخلوه من الدم بدا هذا الجسد الشاحب طاهرا. وكان لكل من الإلهة والمحظية على فخذها الأيسر شامة تشبه بعضها.

ولم تعد كالى بعد نموذج الكمال، الجالس فى السماء على عرش إندرا. فالجسد الذى رست عليه الرأس المقدسة، كان يحن إلى الأحياء السيئة السمعة، واللمسات المحرمة، وللغرف التى تعج بالعاهرات، منصتة للأسرار المباحة، ومترصدة للزبائن عبر زجاج النوافذ الخضراء. وأصبحت غاوية الأطفال، ومثيرة الكهول، والعشيقة المستبدة للشباب، وصار نساء المدينة اللاتى أهملهن أزواجهن وأصبحن فى عداد الأرامل يقارنن جسد كالى بنيران المحرقة. وصارت كالى قذرة كفأر البواليع، ومنفرة كثعلب الحقول. ومع ذلك فقد سرقت القلوب كمن يسرق مزق الأحشاء الممددة على

طاولة الجزار، وتبددت الثروات التى سالت بين أيديها سيلان العسل. وبغير راحة، من بينارس إلى كابيلافيستو، ومن بنجالور إلى سريناجار، حمل جسد كالى معه الرأس الذى افتضح للإلهة بعينيها الصافيتين اللتين لم تكفا عن مواصلة البكاء.

ذات صباح، فى بينارس، خرجت كالى الظمآنة، والمقطبة من التعب، من شارع المحظيات. وفى الريف، كان أحد البلهاء الذين يسيل لعابهم بهدوء، جالسا على حافة كوم من القاذورات، ونهض عند مرورها وشرع فى الركض خلفها. ولم يكن يفصله عن الإلهة إلا مقدار طول ظلها. فأبطأت كالى خطوها وجعلت الرجل يقترب.

وعندما انتهى منها، تابعت طريقها صوب مدينة مجهولة. وسألها طفل صدقة؛ ولم تنذره بأن ثعبانا على أهبة أن يلدغه كان منتصبا بين حجرين. وانتابها هياج ضد كل ما هو حى، وفى نفس الوقت رغبة فى أن تزيد غذاءها وأن تقضى على كل المخلوقات لكى تشفى غليلها. فصار الناس يلتقونها جالسة القرفصاء على أطراف المقابر؛ وهى تقرش العظام بفمها وشدقها الشبيه بشدق اللبؤة. وكانت تقتل الذكور كما تقتل أنثى الحشرات ذكورها؛ وتسحق الكائنات التى تلدها كخنزيرة برية تدور على أعقابها. وكانت ترقص على جثث هؤلاء الذين تقضى عليهم. وتفوح شفاهها الملطخة بالدم برائحة تشبه الرائحة التى تفوح عند الجزار. لكن عناقها كان عزاء لكل ضحاياها، و كان دفء صدرها جديرا بأن يجعلهم ينسون كل الآلام.

وعند طرف غابة، التقت كالى بأحد الحكماء.

كان جالسا متربعا ضاما راحتيه فوق بعضهما، وكان جسده الهزيل ناحلا كأنه قطعة من الخشب معدة للنار. ولم يكن بوسع أحد أن يقول بما كان شابا صغيرا أم كهلا عجوزا؛ فقد كانت عيناه اللتان تريان كل شيء تلحظان بالكاد خلف جفنيه المخفوضين. وكان الضوء من حوله يتخذ شكل الهالة، وكانت كالى التى شعرت فى قرارة نفسها باقتراب الراحة الأخيرة، وبنهاية العوالم، وبخلاص الكائنات، وباليوم الآخر الذى لا تكون فيه جدوى للحياة أو الموت، والزمن الذى يصبح فيه كل شيء بلا معنى كما لو أن هذا العدم الصافى الذى بدأت تدركه قد انتفض داخلها على هيئة طفل قادم.

ورفع معلم الرحمة الكبرى يده لكى يبارك هذه العابرة.

ــ إن رأسى الطاهرة قد لحمت بالعار. أنا أشتهى ولا أشتهى، أتعذب ومع ذلك أستمتع، لدى كره للحياة وخشية من الموت.

ــ نحن جميعا ينقصنا الكمال، قال الحكيم. نحن جميعا موزعون، شذرات، ظلال، أشباح بلا قوام. لدينا جميعا رغبة البكاء ورغبة المتعة على تعاقب القرون.

ــ لقد كنت إلهة فى سماء إندرا، قالت المحظية.

ــ ولم تكونى متحررة من قيود الأشياء، ولم يكن جسدك الماسى فى منأى عن البؤس الذى يعانيه جسد من الطين واللحم،

ربما، لامرأة لا طالع لها، تروح وتغدو على الطرقات، وكنت قريبة أكثر ما يمكن من ذلك الذى لا شكل له.

ـ إنى متعبة، زفرت الإلهة.

عندئذ، تحسس بأطراف أصابعه الجدائل السوداء الملطخة بالرماد وأجابها قائلا:

ـ لقد علمتك الرغبة بطلان الرغبة، وعلمك الندم لا جدوى الندم. عليك بالصبر، إن الخطيئة شىء نشارك فيه جميعا، فلا يعى الكمال بذاته إلا بفضل النقص، كما ان الغضب ليس بالضرورة شيئا أبديا...

نهاية ماركو كارلييفيتش

راحت الأجراس تدق فى السماء الزرقاء على نحو لا يطاق تقريبا. وبدا أن رنينها صار أقوى وأعلى صريرا مما تحدثه فى أى مكان آخر، كما لو أنها كانت بحاجة، فى هذا البلد الواقع على أطراف الأقاليم الكافرة، لأن تؤكد بأعلى صوت أن رنينها كان مسيحيا، كذلك الموت المسيحى الذى أهلها للوجود على الأرض. ولكن بالأسفل، بالمدينة البيضاء، ذات الساحات الضيقة، والرجال المقرفصين جانبا فى الظل، لم يكن يسمع إلا خليط من الصيحات، والنداءات، وثغاء الخراف، وصهيل الخيل، ونهيق الحمير، وأحيانا النعيب أو صلوات بعض النسوة من أجل الروح التى رحلت لتوها، أو ضحكات أبله لا يثير اهتمامه هذا الحزن العام.

فى حى صناع القصدير، كان صوت المطارق يعلو على هذا الصخب.

ولمح العجوز ستيفان، الذى كان قد انتهى بخفة من بضع طرقات خاطفة أنجز فيها رقبة أحد الأباريق، إزاحة هدب القماش الذى يغلق فرجة الباب بما أفضى مزيدا من الحر والشمس النازلة لبعد الظهر لغزو المكان المظلم. ودخل رفيقه أندرييف كأنه داخل بيته ثم توقف عند طرف السجادة.

ـ أتعرف أن ماركو مات؟ لقد كنت هناك، أردف.

ـ قال لى الزبائن أنه مات، أجاب العجوز بغير أن يضع مطرقته، وما دامت لديك رغبة فى الحكى، إحك بينما أعمل.

ـ لى صديق يعمل فى مطابخ ماركو فى أيام الأعياد يتركنى أتناول الطعام، ودائما ما نلتهم بعض شرائح اللحم الطيبة.

ـ إن اليوم ليس أجازة، قال العجوز وهو يتحسس أنف الأبريق النحاسى.

ـ لا، لكننا نتغذى جيدا عند ماركو، حتى فى أيام العمل، وحتى فى أيام الصوم. هناك دائما خلق كثيرون يأكلون، الكهول العرج أولا، هؤلاء الذين لا يتوقفون عن الكلام عن شجاعتهم فى كوسوفو. لكن مجيئهم صار يقل كل عام، وحتى كل موسم. واليوم، دعا ماركو التجار الكبار أيضا، والمحاسبين، ورؤساء القرى، وهؤلاء الذين يعيشون بالجبل، على مقربة من الأتراك الذين بوسعهم إطلاق السهام من جهة إلى الجهة الأخرى للسيل الذى ينساب بين الصخور. وعندما يشح الماء بالصيف، يسيل الدم. كان هذا بسبب الحملة التى تعد، ككل عام، لجلب المهور والبهائم التركية. وتقدم الأطباق الكبيرة التى لا تخلو من التوابل، وهى دسمة وتسيل بين يديك، بسبب الدهن. وماركو يأكل ويشرب كعشرة أشخاص، ويتحدث أكثر مما يأكل، ويضحك ويلكم بقبضته أيضا أكثر مما يشرب. ومن وقت لآخر، يهدئ من المجابهة، عندما يتشاجر اثنان مقدما بسبب غنيمة.

"وعندما نصب، نحن الخدم، الماء على كل الأيدى، ونجفف كل الأصابع، يخرج للفناء الكبير الغاص بالناس. هم يعرفون بالمدينة أن البقايا توزع على من يريد، وبقايا البقايا تذهب للكلاب، وغالبية الناس يأتون بعلب صغيرة أو كبيرة، أو بقصاع، أو على أقل تقدير بسلال. كان ماركو يعرفهم جميعا تقريبا. فلا يوجد شخص يضاهيه فى تذكر الوجوه والأسماء، وفى وضع الإسم المضبوط على الوجه الفعلى. وفى إحدى المرات، فعل هذا مع شخص عجوز يتوكأ على عصا، وراح يتحدث عن الزمن الذى حاربا فيه معا البك حاكم القسطنطينية، ومرة أخرى فعله مع عازف جيتار أعمى، وراح يغنى البيت الأول من موشح ألفه الرجل على شرفهعندما كان شابا. ومرة أمسك بذقن امرأةعجوز قبيحة، وذكرها بأنهما ناما معا فيما مضى من الزمان. وأحيانا، كان يأخذ بنفسه ربع خروف فى طبقه، ويقول لشخص: "كل!" نعم، لقد كان دوما هكذا.

"وفجأة توقف أمام عجوز ضئيل الحجم كان جالسا على أريكة يؤرجح قدميه أمامه.

ـ أنت، هذا ما قاله، لماذا لم تحضر قصعة؟ أنا لا أذكر اسمك.

ـ البعض يطلقون على اسما، والبعض يطلقون على اسما آخر، قال العجوز الضئيل، هذا أمر لا أهمية له.

ـ أنا أيضا لا أتذكر وجهك، قال ماركو. ربما كان ذلك بسبب

أنك تشبه جميع الناس. أنا لا أحب غير المميزين، ولا الشحاذين الذين لا يشحذون. ألست تتجسس، بالصدفة لحساب الترك؟

ـ هناك من يقولون أننى أراقب طيلة الوقت، قال العجوز. ولكنهم يخطئون، فأنا أترك الناس يفعلون ما يريدون.

ـ وأنا أيضا، أحب أن أفعل ما أريد، صرخ ماركو. فلا ترينى وجهك ثانية. أخرج من هنا!.

"وسدد إليه ركلة بقدمه، كان من شأنها أن تسقطه من على الدكة. لكنه كان كما يقال بالأحرى عجوزا من حجر. ولم يكن يبدو عليه أنه أكثر صلابة من غيره، لكن قدماه ظلتا تتدليان فى نعليهما الباليين أمامه، بحيث لا يمكنك القول بأن ماركو قد لمسه.

"وعندما أمسكه ماركو من ظهره لينهض، حدث نفس الشئ، وهز العجوزرأسه.

ـ انهض وقاتل كرجل، صاح ماركو، وقد احمر وجهه.

"ونهض العجوز الضئيل، وبدا ضئيلا بالفعل، فلم يصل طوله إلا لمستوى كتف ماركو. وظل هكذا بغير أن ينطق بشئ أو يفعل شيئا. فألقى ماركو بنفسه عليه بذراعين متقلصين. ويمكنك القول بأن ضرباته لم تصل إلى الرجل، ومع ذلك، صارت قبضتاه مدماتين.

ـ أنتم هناك، صاح ماركو بحراسه، لا تتدخلوا، هذا أمر لا يعنى أحدا سواى. فهذه المرة.

لكنه لهث. وترنح فجأة ثم سقط ككومة. وأقسم لك أن العجوز لم يتحرك قيد أنملة.

ـ إنها سقطة سيئة، يا ماركو، قال العجوز. أنت لن تستطيع النهوض بعد الآن، وأعتقد أنك كنت تعرف ذلك قبل أن تبدأ.

ـ هناك، مع ذلك، هذه الحملة ضد الترك، إنها كما يقال عمل أنجزته. تنفس الرجل الراقد على الأرض بصعوبة. ولكن بما أن الأمر كذلك، فليكن.

ـ ضد الترك أم معهم؟ سأل العجوز القصير. الصحيح أنك عملت أحيانا معهم وأحيانا ضدهم.

ـ إن الفتاة التى كنت أغازلها، والتى قالت لى ذلك، ماتت. لقد قطعت لها ذراعها الأيمن. كذلك كان هناك السجناء الذين ذبحتهم، رغم أنى وعدتهم... ولكن ألم يكن هناك سوى الشر؟ لقد أعطيت للكهان، وأعطيت للفقراء...

ـ لا تشرع فى تقديم كشف حساب، قال العجوز. فدائما ما يأتى الفعل متقدما أو متأخرا، ولا يفيد بشىء. دعنى أولا أضع سترتى تحت رأسك، حتى لا تتأذى كثيرا من الأرض.

وخلع سترته، وفعل كما قال. كنا جميعا فى غاية الذهول لكوننا مأخوذين به. وعندما تصورنا أنه لم يعد لديه ما يفعله، توجه نحو الأبواب، التى كانت مفتوحة على مصاريعها. كان ظهره منحنيا بعض الشىء، وبدا عليه أكثر من أى وقت مضى مظهر الشحاذ، لكنه كان شحاذا لا يطلب شيئا.

وراح كلبان يتشممان كعبه، فوضع يده أثناء المرور على رأس الكلب الأسود الكبير الذى كان شديد البشاعة. ولم يكشر الكلب الأسود الكبير عن أنيابه. عندئذ عرفنا أن ماركو قد مات. وتحولت أنظارنا جميعا صوب المدخل، لنشاهد العجوز الذى كان قد مضى.

وبالخارج، يمتد الطريق مستقيما كما تعلم، بين تلين، صاعدا أحيانا، ثم يهبط، وبعدها يصعد ثانية. وكان الرجل قد توغل بالفعل بعيدا. فقد رأينا شخصا يسير فى الغبار، وقميصه يتأرجح فى الريح. كان يمضى بخطى أسرع من خطى شخص عجوز. وقد تحلق فوق رأسه سرب من الأوز البرى، كان يطير فى السماء الصافية.

تعاسة كورنيليوبيرج

ما إن عاد كورنيليو بيرج إلى أمستردام، حتى سكن الفنادق. وكان غالبا ما ينتقل من فندق لفندق، عندما تحين لحظة الدفع، وكان يرسم أحيانا صورا نصفية صغيرة، ولوحات من النوع الذى يطلبه الزبائن، فيقوم بعمل قطعة عارية لها وهنا أو هناك، أو يذرع الطرقات عل وعسى. ولسوء حظه، بدأت يداه فى الارتعاش، وصار عليه أن يغير زجاج عويناته بآخر أكثر سمكا، فقد أجهز النبيذ، الذى كان يسكره شربه بإيطاليا، مع الدخان الذى أدمنه، على تلك اللمسة الواثقة التى ظل يتباهى بها. وأصابه الحنق. فكف عن إكمال أعماله، وراح يشوه كل ما يفعله بتكثيف حدة الألوان، أو بإحداث خدوش فى اللوحات، ثم انتهى إلى التوقف التام عن العمل.

كان يقضى الساعات الطوال بالبارات المعبأة بالدخان كأنها لا وعى السكير، حيث يدفع عنه تلامذة رمبرانت القدامى، وزملاء دراسته بالماضى ثمن شرابه آملين أن يحكى لهم حكايات رحلاته. لكن البلاد المغبرة بالشمس، التى اصطحب إليها كورنيليو فيما مضى فرشه وأجربة ألوانه، صارت تبدو أقل وضوحا فى ذاكرته كما لو لم يعد لها وجود فى مشاريعه المستقبلية، ونضبت لديه، على عكس أيام شبابه الأول، تلك النكات الغليظة التى كان يلقيها فتنفجر قهقهات خدم المقاهى. وأدهش الذين كانوا يتذكرون كورنيليو الصاخب فيما مضى

أن يروه صامتا هكذا، وكان السكر وحده هو الذى يعيد له لسانه، فينطلق فى الحديث بخطابات غير مفهومة. وكان حينئذ، ييمم وجهه صوب الجدار، وينزل قبعته على عينيه، كى لا يرى الجمهور، الذى كان يمقته كما يقول. وهكذا، صار كورنيليو، رسام الوجوه العجوز، الذى استقر زمنا طويلا فى حجرة على السلم بروما، وقضى حياته كلها فى تفحص الوجوه الإنسانية، يشيح عنها الآن بلا اكتراث، وبسخط. ووصل به الأمر حد القول بأنه لم يحب فى حياته قط رسم الحيوانات، لأنها تشبه البشر كثيرا.

وبقدر ما فقد القليل من الذكاء الذى لم يكن لديه أى قدر منه، بدا أن العبقرية هبطت عليه، فاتخذ مكانه أمام حامل الرسم، فى سقيفته التى تعج بالفوضى، واضعا أمامه ثمرة فاكهة نادرة غالية الثمن، عليه أن يتعجل رسمها على اللوحة قبل أن يفقد جلدها اللامع طزاجته، وقدرا نحاسيا بسيطا، وبعض القشر.

كانت الغرفة يغمرها ضوء أصفر؛ وقد تواضع المطر فغسل زجاج النافذة؛ وقد انتشرت الرطوبة فى كل الأنحاء. ونفحت الرطوبة نسغا على كرة البرتقال المحبحبة، فتخللت أطر النوافذ وصارت تصر صريرا، وأطفأت لمعان نحاس الإناء. لكنه وضع فرشه جانبا؛ وجمدت أصابعه الباردة التى كانت تهرع فيما مضى كى ترسم حسب الطلب الفينوسات النائمة أو صور المسيح ذى اللحية البيضاء وهو يعمد الأطفال العراة والنسوة المتشحات بالملاءات، وعزفت تلك الأصابع عن أن ترسم على اللوحة هذا الدفق المزدوج

الرطب والمضئ الذى يشرئب من الأشياء ويكمد السماء. وراحت يداه الشائهتان تتحسسان برقة بالغة كل تلك الأشياء التى لن يرسمها.. وفى شارع أمستردام المقفر، راح يحلم بالريف المبلل بالندى الأكثر جمالا من الشواطئ الغسقية، المقفرة، والمحرمة على الإنسان. وبدا هذا العجوز، الذى أترعه البؤس، مصابا باستسقاء فى القلب. وتساوى كورنيليو بيرج، الذى سفسف هنا وهناك أعمالا تدعو للرثاء، مع رمبرانت فى رؤاه.

ولأنه لم يعد من جديد صلاته بمن تبقى له من عائلته. لم يتعرف عليه بعض أقربائه؛ وتظاهر الآخرون بعدم معرفته. لكن الوحيد من بينهم الذى ظل يبادله التحية، كان العجوز عضو المجلس البلدى بهارلم.

عمل كورنيليو طيلة ربيع فى هذه القرية الصغيرة النظيفة، حيث كلفوه برسم جدران زائفة على حائط الكنيسة. وفى مساء اليوم الذى انتهت فيه مهمته، قبل دعوة هذا الرجل العجوز الذى أصابه مس بسبب جمود إيقاع حياته، وكان يعيش وحيدا، تقوم على العناية به خادمة، ولا يعرف شيئا عن أمور الفن. ودفع الحاجز الرفيع الخشبى المدهون؛ بالحديقة الصغيرة، التربية من إحدى القنوات، وتوقع هذا الهاوى لزهور الليلك رؤيتها بين الزهور.

ولم يتأثر كورنيليو قط برؤية هذه البصيلات النفيسة، لكنه كان حاذقا فى تمييز أدق تفاصيل أشكالها، وأقل درجات ألوانها، وكان

يعرف أن العجوز عضو المجلس البلدى لم يقم بدعوته إلا لكى يعرف رأيه حول صنف جديد منها. ولم يكن بوسع أحد أن يصف بالكلمات التنوع اللانهائى للأبيض، والأزرق، والأحمر والبنفسجى.

كانت الأرض مغطاة بالبرد الجاف وقد خرجت من طينتها السوداء والرمادية الكؤوس البطريركية محملة بعطر مبلل، صعد من الأرض، وطفا وحيدا على هذه الزهور التى لا عطر لها. وأخذ العجوز وعاء على ركبتيه، وراح يمسك بالتويجات بين إصبعيه، كما لو أنه يقوم بالتشذيب، بغير أن يفه بكلمة، للتعبير عن إعجابه بهذه المعجزة الرقيقة. وتحدثا قليلا، فأبدى كورنيليو رأيه بهزة من رأسه.

فى ذلك اليوم، كان العجوز سعيدا بتنويعة من الزهور أكثر ندرة من الأخريات، كان لزهراتها البيضاء والبنفسجية حزوز قزحية. ففصلها وأدارها فى كل الاتجاهات، ووضعها عند قدميه:

ـ إن الله، قال، هو الفنان الأعظم.

ولم يجب كورنيليو بيرج. وأردف الرجل العجوز الهادئ:

ـ الله، فنان الكون.

وراح كورنيليو ينظر تارة للوردة وتارة للقناة. ولم تعكس تلك المرآة الداكنة إلا الحواشى، وحوائط الطوب، وغسيل المنازل. لكن المتشرد العجوز المتعب راح يتأمل كل حياته دفعة واحدة. وتراءت له بعض ملامح أشخاص ظهروا على مدى رحلاته الطويلة، بالشرق المنفر، والجنوب العارى، وظهرت له تعابير الشح، والغباوات،

والشراسة الملحوظة تحت هذه السموات الجميلة، فى المآوى البائسة، والأمراض المخجلة، ومشاجرات السكاكين على أعتاب الحانات، ووجوه الدائنين القاسية والجسم الجميل الرمادى لمانيكانه الخشبية، وفردريك جيريتسدوشتر، الممدد على طاولة التشريح بمدرسة الطب بفريبورج. ثم واتته ذكرى أخرى، بالقسطنطينية، التى رسم بها بعض صور نصفية للسلطان من أجل سفير الأقاليم المتحدة، وقد واتته فرصة الإعجاب هناك بحديقة ليلك أخرى، وعاودته ذكرى الزهو والفرح للسفير، الذى راهن على الرسام كى يخلد خدر نسائه المزهر فى جماله الصامت. وفى داخل فناء من الرخام، تجمعت أزهار الليلك، ورجفت وتمتمت، ويمكن القول أن طائرا صدح، وقد تخللت أطراف السرو زرقة السماء الشاحبة. لكن العبد الذى اصطحب الرسام بناء على أمر من سيده ليريه هذه المعجزات كان أعورا، وكان الذباب يحط على عينه التى فقدها مؤخرا. وعاد كورنيليو من ذكرياته إلى محدثه العجوز، ورفع نظارته، وقال:

ــ أجل، الله هو فنان الكون.

وأردف بمرارة وبصوت خفيض:

ــ لكن ياللتعاسة، يا سيدى عضو المجلس البلدى، فهو لم يكتف برسم المناظر الطبيعية.

حاشية

بقلم الكاتبة

هذه الطبعة من "قصص شرقية"، تضمنت عددا من التنقيحات في الأسلوب، بغير المساس بجوهرها الذى كانت عليه عند ظهورها للمرة الأولى فى المكتبات عام ١٩٣٨. فقط، نهاية الحكاية المعنونة "كالى ذات الرأس المقطوع" هى التى تمت إعادة كتابتها، من أجل التشديد أكثر على بعض الرؤى الميتافيزيقية التى لا يمكن فصلها عن هذه الأسطورة، والتى بغيرها، وبدون معالجتها بشكل غربى، لن تكون سوى "حكاية غامضة من حكايات الغزل الهندي". كما تم حذف قصة أخرى، هى "سجناء الكرملين"، التى كانت محاولة قديمة لإعادة ترجمة حديثة لأسطورة سلافية قديمة، وذلك بسبب من تشوهها لدرجة احتياجها لإضافة رتوش.

هذه القصص العشر "اتخذت عنوانا لها هو: قصص وحكايات شرقية الذى ربما اتفق أكثر مع تنوع المادة التى تكونها"، فأربع منها جرت إعادة كتابتها، وقد قمت بتطوير حكاياتها الأصلية بدرجة من الحرية بلغت هذا الحد أو ذاك. وهى: كيف أنقذ وانج فو، التى تم استلهامها من حكاية أسطورية طاوية من الصين القديمة؛ وابتسامة ماركو، وحليب الموت، اللتين جاءتا من الأساطير الشعرية لمنطقة البلقان فى القرون الوسطى؛ والرابعة هى كالى ذات الرأس المقطوع،

التى تعد بمثابة اجتزاء لأسطورة هندوكية خالدة، هى ذات الأسطورة التى تمت ترجمتها بطريقة أخرى عندما استلهم منها غوتة ما كتبه فى "الله والراقصة"، واستلهم منها توماس مان ما كتبه فى "الرؤوس المبدولة". ومن جهة أخرى، كان مصدر قصتي: "الرجل الذى عشق حوريات البحر"، و"أفروديسيا الأرملة" (الزعيم الأحمر، فى الطبعة الأصلية) فى مبدأ الأمر، بعض الحوادث المنشورة، أو الخرافات اليونانية الحديثة، أو بالأحرى خرافات يونان الأمس، لأن تاريخ نشر هذه الحوادث جرى ما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٧. أما "عذراء السنونو" فهى تمثل على العكس قصة من الخيال الشخصى للكاتب، تولدت من الرغبة فى شرح اسم جذاب لكنيسة صغيرة فى الريف الأثينى. وفى "الحب الأخير للأمير جينغي"، تمت استعارة الشخصية والإطار، لا من أسطورة أو خرافة، وإنما من نص أدبى تراثى عظيم، ورد برواية يابانية من القرن الحادى عشر، بعنوان "جينغى مونوجاتاري" للروائية اليابانية موراساكى شيكيبو، التى قصت فى ستة أو سبعة أجزاء مغامرات دون جوان آسيوى من الطبقة الراقية. ولكن لأسباب تتعلق ببناء الشخصية أخفت موراساكى موت بطلها وتجاوزته بالفصل الذى صار فيه جينغى أرمل وقرر أن ينسحب من العالم حيث كانت نهايته أمرا متضمنا. وهذه القصة إن لم يكن هدفها سد تلك الثغرة، فقد شاعت على الأقل أن تتخيل ماذا كان يمكن أن يكون شكل هذه الخاتمة لو أن موراساكى نفسها قد كتبتها.

أما نهاية ماركو، فهى حكاية فكرت فى كتابتها منذ أعوام كثيرة، ولم أنجز ذلك إلا عام ١٩٧٨. وقد استلهمت القصة من شذرة ملحمية صربية تحدثت عن موت البطل على يد شخصية عابرة، غامضة، عادية ومستعارة. ولكن أين قرأت أو سمعت هذه الحكاية التى رحت أمعن التفكير بسببها؟.. لم أعد أعرف الآن، كما لم أعثر عليها ضمن النصوص التى فى حوزتى، والتى تخص روايات مختلفة لموت ماركو كارليفيتش، ولكنها لا تتضمن نهاية له بهذا الشكل. وأخيرا، كانت قصة تعاسة كورنيليو بيرج أو "أزهار تيوليب كورنيليو بيرج" فى النص المنشور فيما مضى، موظفة كبداية لخاتمة رواية لم أكملها لحين كتابة هذه السطور. وليس بها شيء شرقى سوى إيحاءين قصيرين "تمت إضافتهما فيما بعد" برحلة للفنان فى آسيا الصغرى. وهذه القصة لا تنتمى بالمرة للمجموعة التى سبقتها. ولكننى لم أقاوم رغبتى فى إيجاد مقارنة بين الرسام الصينى العظيم، الذى ضاع ثم بعث فى داخل عمله الفنى، وبين ذلك الغامض المعاصر لرمبرانت والذى يتأمل بسوداوية مصيره الخاص.

أعمال مارجريت يورسنار

روايات وأقاصيص

- ألكسيس أو معاهدة المعركة الباطلة ــ الطعنة القاضية (جاليمار ١٩٧١)
- أوريديس الجديدة (جراسيه، ١٩٣١)
- درهم الحلم (جاليمار، ١٠٧١)
- قصص شرقية (جاليمار، ١٩٦٨)
- ذاكرة أدريان (طبعة مزينة، جاليمار، ١٩٧١؛ طبعة عادية. جاليمار، ١٩٧٤)
- العمل فى الظلام (جاليمار، ١٩٦٨)
- أنا، سورور... (جاليمار، ١٩٨١)
- كالماء الجارى (أنا سورور ــ رجل غامض ــ صباح جميل) (جاليمار، ١٩٨٢)
- رجل غامض ــ صباح جميل (جاليمار، ١٩٨٥)
- حكاية زرقاء ــ المساء الأول ــ الرقية المؤذية (جاليمار، ١٩٩٣)

دراسات وأبحاث

- بيندار (جراسيه، ١٩٣٢)
- بشرط التحقق (جاليمار، ١٩٦٢، طبعة نهائية، ١٩٧٨)
- متاهة العالم، الجزء الأول: ذكريات ورعة (جاليمار ١٩٧٤)
- متاهة العالم، الجزء الثانى: أرشيف الشمال (جاليمار ١٩٧٧)
- متاهة العالم، الجزء الثالث: ماذا؟ الخلود (جاليمار ١٩٨٨).
- ميشيما، أو تجلى الخواء (جاليمار، ١٩٨١)
- الزمن، هذا النحات العظيم (جاليمار ١٩٨٣)
- فى الحج، وفى الخارج (جاليمار ١٩٨٩)
- محيط السجن (جاليمار ١٩٩١)
- خطاب استقبال مارجريت يورسنار بالأكاديمية الملكية البلجيكية للغة والأدب الفرنسى، مع خطاب الترحيب الذى ألقاه كارلو برون (جاليمار ١٩٧١)
- خطاب استقبال مارجريت يورسنار بالأكاديمية الفرنسية ورد السيد ج. دورميسون (جاليمار ١٩٨١)

المسرح

- مسرح١: العودة لقيصر ــ حورية البحر الصغيرة ــ الحوار فى المستنقع (جاليمار ١٩٧١)
- مسرح ٢: أليكترا أو سقوط الأقنعة ــ لغز السست ــ من ليس له مينوتور؟
- (جاليمار ١٩٧١)

قصائد، وقصائد منثورة

- حريق (جاليمار ١٩٧٤)
- إحسانات ألسيب طبعة جديدة (جاليمار ١٩٨٤)

ترجمات

- فرجينيا وولف، الأمواج (ستوك ١٩٧٣)
- هنرى جيمس: من يعرف ميسى (لافون ١٩٤٧)
- تقديم نقدى لكونستانتين كفافى مع ترجمة كاملة لــ "قصائد" بمشاركة ك. ديمارا (جاليمار ١٩٥٨)
- مجرى عميق، نهر داكن، "روحانيات زنجية" ترجمة وتعليق (جاليمار ١٩٦٤)

- التاج والقيثارة: تقديم نقدى وترجمة لمختارات من الشعراء اليونانيين (جاليمار ١٩٧٩)
- جيمس بولدوين: ركن "الموافقة" (جاليمار ١٩٨٣)
- يوكو ميشيما: خمس مسرحيات "نو" حديثة (جاليمار ١٩٨٤)
- بلوز وجوسبلز: نصوص ترجمتها وقدمت لها مارجريت يورسنار، مع صور جمعها جيرى ويلسون (جاليمار ١٩٨٧)
- صوت الأشياء: نصوص جمعتها مارجريت يورسنار، مع صور لجيرى ويلسون (جاليمار ١٩٨٧)

مجموعة "بيبلون"

ذكريات ورعة ــ أرشيف الشمال ــ ماذا؟ الخلود (متاهة العالم ٣،٢،١ــ جاليمار ١٩٩٠)

مجموعة البلياد

أعمال روائية: ألكسيس أو معاهدة المعركة الباطلة ــ الطعنة القاتلة ــ هبة الحلم ــ ذاكرة أدريان ــ العمل فى الظلام ــ كجريان الماء ــ حريق ــ قصص شرقية (جاليمار ١٩٨٢)

دراسات وأبحاث

دراسات: بشرط التحقق ـــ ميشيما أو تجلى الخواء ـــ الزمن، هذا النحات العظيم ــ فى الحج وفى الخارج ــ محيط السجن.

أبحاث: متاهة العالم (ذكريات ورعة، أرشيف الشمال، ماذا؟ الخلود) ـــ نصوص منسية، بيندار، الرؤى والأقدار ـــ ملف الرؤى والأقدار ـــ مقالات لم تجمع: تشخيص أوربا ـــ سيمفونية البطولة ـــ بحث فى نسب القديس ـــ مقايض الذهب (جاليمار ١٩٩١)

مجموعة فوليو

ألكسيس أو معاهدة المعركة الباطلة، الطعنة القاتلة

ذاكرة أدريان

العمل فى الظلام

ذكريات ورعة (متاهة العالم، الجزء الأول)

أرشيف الشمال (متاهة العالم، الجزء الثانى)

ماذا؟ الخلود (متاهة العالم، الجزء الثالث)

أنا، سورور

ميشيما أو تجلى الخواء

حكاية زرقاء ـــ المساء الأول ـــ الرقية المؤذية (تقديم جوسيان سافينو)

مجموعة "المتخيل"

قصص شرقية

هبة الحلم

حريق

مجموعة أرلكان

الحوار فى المستنقع

مجموعة جاليمار الشعرية

جدول عميق، نهر داكن، روحانيات زنجية (ترجمة وتعليق)

تقديم نقدى لكونستانتين كفافى مع ترجمة كاملة لـــ "قصائد" بالمشاركة ك. ديمارا

التاج والقيثارة

مجموعة "أنفانتيماج"

كنيسة عذراء السنونو

رسوم جورج ليموان

مجموعة فوليو

كيف أنقذ وانج فو

نص قامت بتلخيصه المؤلفة من رسوم جورج ليموان

ألبوم الشباب

الحصان الأسود ذو الرأس لابيضاء

ترجمة وتقديم من حكايات الأطفال الهندية

رسوم مجموعة من الفنانين.

المؤلفة فى سطور:

ولدت مارجريت يورسنار عام 1903 فى بروكسل لأب فرنسى وأم من أصول بلجيكية، وقد نشأت وتربت فى فرنسا لكنها قضت أغلب حياتها بالخارج حيث أقامت بإيطاليا، وسويسرا، واليونان، ثم بأمريكا حيث عاشت فى جزيرة مونت ديزرت، على الشاطئ الشمالى الشرقى للولايات المتحدة الأمريكية، إلى أن وافتها المنية عام 1987.

وقد انتخبت مارجريت يورسنار عضوا بالأكاديمية الفرنسية فى السادس من مارس 1980.

وتتضمن أعمالها روايات منها :ألكسيس أو معاهدة المعركة الباطلة (1929)، والطعنة القاتلة (1939)، ودرهم الحلم (1959)؛ ودواوين شعرية منها :قصائد منثورة :حريق (1936)؛ وقصائد منظومة :إحسانات ألسيب (1956)؛ وقصصا قصيرة منها :قصص شرقية (1963)؛ ودراسات منها :بشرط التحقق (1962)، والزمان، ذلك النحات العظيم (1983)، وفى الحج وفى الخارج (1989)؛ إضافة إلى العديد من المسرحيات والترجمات.

لها أيضا ذاكرة أدريان (1951)وهى رواية تاريخية لحقيقة مدهشة، حظيت بسمعة عالمية والعمل فى الظلام التى حازت جائزة فيمينا عام 1968. وذكريات ورعة (1974)وأرشيف الشمال (1977) وماذا؟ الخلود (1988) التى تكون معا ثلاثية "متاهة العالم."

المترجم فى سطور:

محمد سيف

ولد بالقاهرة عام 1946

شاعر وكاتب ومترجم

من أعماله المنشورة:

غنائيات (ديوان شعر)

وطن الشباب (ديوان شعر)

صلاح جاهين وعالمه الشعرى (دراسة نقدية)

ومن ترجماته المنشورة:

"مجنون السرقة "مجموعة قصصية للأديب المجرى ديسو كوستولاني

"إغواء الغرب "لأندريه مالرو

"الإنسان العابروالأدب" لأندريه مالرو

"ذكريات طفولة "رواية من أربع أجزاء لمارسيل بانيول

إضافة للعديد من الدراسات والقصائد لعدد من الكتاب والشعراء العالميين.

. الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى: حســـــن كـــامـــل